

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب التاسع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب التاسع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٦



* (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ) : المراد بهم لوط وأهله ؛ كما يراد من بنى آدم ؛ آدم وبنوه .

(مِن قَرْيَتِكُمْ) : هى سدوم وما حولها ، ويطلق عليها القرى المؤتفكات .

(أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) : أى جماعة يتنزهون من صنيعهم .

(قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَٰبِرِينَ) : أى قدر الله بقاءها فى العذاب مع الباقين فيه ، والغابر : الباقى . يقال : غَبَر الشىء ، يَغْبُرُ ، غُبُورًا : بقى .

التفسير

لما أنذر لوط – عليه السلام – قومه نقمة ربهم وعذابه على أفعالهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين سخروا وَهَزِئوا به ، وأجمعوا أمرهم على إيذائه ، وإيذاء من معه بإخراجهم من وطنهم كما قال – تعالى – حكاية لما وقع من هؤلاء السفهاء :

٥٦ – (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا ...) الآية .

أى : فما كان لهم جواب عن تحذيرهم مما هم فيه من القبائح إلا قولهم : أخرجوا لوطًا ومن انتسبوا إليه ولاذوا به من المؤمنين – أَخْرِجوهم (مِن قَرْيَتِكُمْ) وهى سدوم وما حولها من القرى[1] وهى قرية من أرض العرب ، فكانوا يمرون عليها ، ويرون آثار العذاب الذى نزل بها .

---

(١) هاجر لوط وعمه إبراهيم – عليهما السلام – من أرض بابل فنزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوط الأردن . ا هـ . البحر المحيط لأبى حيان ، وذكر صاحب القاموس أن الصواب سذوم – بالذال المعجمة – وذكر شارحه أنه مضبوط بالوجهين وأن المشهور فيه إهمال الدال ، وصوبه شيخه فى شرح الدر .

ولم يَجِدْ هؤلاء المجرمون ما يتذرعون به لإخراج آل لوط من ديارهم إلّا قولهم : (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فهو تعليل لجريمة إخراجهم على وجه يتضمن الاستهزاء بهم كما قال ابن عباس ، أى : إنهم قوم يتنزهون ويتبرأون مما نأتيه ، ويعدونه سفهًا وقذرًا لا ينبغى اقترافه ، قال قتادة : عابوهم - والله - بغيرِ عَيْبٍ ، بأنهم يتطهرون ،وقيل : يتطهرون بمعنى يتكلفون الطهر من أفعالنا رياءً وتظاهرًا فحسب .

ولتهوين أمر إخراجهم من القرية وما حولها أضافوها إليهم على طريق الخطاب للإشعار بأن لهم السلطان فيها والتصرف فى شأنها ، والتحكم فى أهلها من غير معارض يحول بينهم وبين ما يبتغون .

والظاهر أن هذا الجواب صدر عن قوم لوط بعد المرة الأخيرة من مرات مواعظ لوط - عليه السلام - التى أمرهم فيها بالطاعة ونهاهم بها عن المعصية ، لا أنه لم يصدر عنه وعنهم كلام آخر غيره .

٥٧ - (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ) :

أى : فأنجينا لوطًا وأهله ، وهم ابنتاه ومن تبعه من المؤمنين ، وقيل : لم يكن معه إلّا ابنتاه ، كما قال تعالى : « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »[1] . أما امرأته فكانت من الهالكين كما قال-تعالى- : (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَٰبِرِينَ) أى : الباقين فى العذاب لكفرها وموالاتها لمن ضل وغوى ، كما قال-تعالى- : «فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ»[2] .

٥٨ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ) :

أى : وأمطر الله - سبحانه - على هؤلاء الفاسقين مطر عذاب ونقمة فكان سيئًا لم يعهدوا له مثيلًا ، فهو من حجارة قوية صلبة متتابعة النزول معْلَمة بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض ، كما قال-تعالى- : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ »[3] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآيتان : ١٧٠ ، ١٧١ من سورة الشعراء .

(٣) من الآيتين : ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .

(قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) : أى اختار لرسالته وهم الأنبياء - عليهم السلام -

(حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : أى بساتين ذات حُسْن ، كل بستان عليه حائط ، مِنْ : أحدق بالشىء ، إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فاستعملت فى كل بستان وإن لم يكن محوطًا بحائط .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : عن التوحيد إلى الشرك ، أو يساوون بالله غيره من آلهتهم ، من : العِدْل بمعنى المثل والنظير . (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ) : جبالًا ثوابت .

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) : أى مانعًا بين العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر.

التفسير

٥٩ - (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بعد ما قص - سبحانه - على نبيه ﷺ القصص الدالة على كمال قدرته ، وعظيم شأنه ، وما خص به رسله من الآيات الكبرى ، والمعجزات الباهرة ، أمره ﷺ بحمده - تعالى - على ما أفاض عليه من نعم عظيمة لا مطمح وراءها لطامح ؛ حيث علمه ما لم يعلم من أخبار أنبيائه السابقين مع أممهم واجتهادهم فى الدين ، وقد بين على ألسنتهم صحة التوحيد

وبطلان الكفر والإشراك ، كما أمره أن يسلم على المختارين من عباده ، ويراد بهم كافة الأنبياء والمرسلين لدلالة المقام ولقوله – تعالى – فى آية أخرى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ »[1] ومن جملتهم الذين قص القرآن أخبارهم ، عرفانًا بفضلهم وأداءً لحق تقدمهم ، وقيل : هذا أمر له ﷺ بحمده – تعالى – على هلاك من هلك من كفرة الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الذين اتقوا ربهم اقتداءً برسلهم فكانوا من الناجين . .

ويرى ابن عباس أن المراد من عباده المصطفين أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم لنبيه – رضى الله عنهم – أخرجه عَبْدُ بن حُميد والبزار وابن جرير وغيرهم .

والسلام على غير الأنبياء مما لا خلاف فى جوازه إن كان تابعًا للأنبياء ، وقال الحنابلة وغيرهم بجوازه استقلالًا ، وهذا ظاهر قول ابن عباس .

وقال الزمخشرى : أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين الدالة على وحدانيته – تعالى – وكمال قدرته ، وأن يستفتح بحمده والتسليم على أنبيائه والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن لكل متكلم فى أمر ذى بال أن يتبرك بهما وأن يستظهر بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وتوقيف على أدب جميل يحمل على التواضع والإخلاص ، ولقد توارث العلماء والخطباء كابرًا عن كابر ، هذه السنة الحميدة اقتداءً برسول الله ﷺ انتهى باختصار .

(ءَآللهُ خَيْرٌ[2] أَمَّا يُشْرِكُونَ) : إنكار على المشركين وتوبيخ لهم أن يعبدوا غير الله .

أى : أيهما خير ؟ آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة أم الذى يشركونه به من الأصنام ؟ ومرجع ترديد السؤال بينهما فى الخيرية إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى ، وتسفيه آرائهم والتهكم بهم ، وذلك لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شىء إلَّا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة .

---

(١) الآية ١٨١ من سورة الصافات .

(٢) قال أبو حيان : «كثيرًا ما يجىء هذا النوع من أفعل التفضيل (خير) حيث يعلم ويتحقق أنه لا شريك هناك وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيه على الخطأ ، ويقصد بالاستفهام فى مثل ذلك إلزامه الإقرار بحصر التفضيل فى جانب واحد وانتفائه عن الآخر » انتهى : من تفسير الآلوسى .

ومن البين أنه ليس فيما أشركوه به - تعالى - شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره ، ومع علمهم بذلك فقد دفعهم الجهل المفرط إلى إيثاره هوى وعبثا وإمعانا فى الخطأ والضلال .

٦٠ - (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً . . .) الآية .

عدد الله - سبحانه - بهذه الآية والآيات الأربع التالية الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله ، وأشار بها إلى أدلة انفراده - سبحانه - بالخلق والرزق والتصرف والتدبير وبكل خواص الألوهية إبرازا لكمال قدرته ، حيث قال - سبحانه - : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) إضراب انتقالى عن سؤالهم سؤال تقرير عمن هو خير ، أهو الله القادر أم آلهتهم المزعومة ، إلى إثبات الخيرية لله وحده ، أى : بل من قدر على خلق السموات والأرض خير من جماد لا يقدر على شىء ، ولا خير فيه أصلا يرجع إلى إرادته .

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : خطاب للكفرة لتشديد التبكيت لهم والإلزام ، أى : أنزل - سبحانه - لأجلكم من السماء نوعا من الماء وهو المطر ، جعل فيه حياتكم وحياة أرضكم وزروعكم ودوابكم ، كما جعل مما ينبت به ما يكون متاعا لأنفسكم ، وراحة لقلوبكم ، وزينة لأبصاركم فأنبت به - بعظيم قدرته وعجيب صنعه - بساتين ذات حسن ورونق جميل يبتهج بها الناظر إليها ، ويسر بمختلف ألوانها وأشكالها وروائحها ، وطعومها ، مع أنها تسقى بماء واحد ، مما لا يقدر عليه إلا من تفرد بالخلق والإبداع جل وعلا ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : (مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَا) أى : ما أمكنكم ، وما استطعتم - مهما بذلتم من جهد وأوتيتم من فكر - إنبات شجرها ، فضلا عن ثمرها ، وسائر صفاتها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بالملك المتفرد به دون سواه ، والالتفات من الغيبة إلى التكلم فى قوله : (فَأَنۢبَتْنَا) لتأكيد اختصاص الفضل بذاته - تعالى - وعجز قوى البشر عن مثله .

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) : أى أإله آخر مع الله فى خواص الألوهية التى لا يقدر غيره عليها حتى يتوهم جعله شريكا له فى العبادة ، وهذا تبكيت لهم على اتخاذهم آلهة عاجزة مع الله صاحب القوى والقُدَر التى لا تتناهى .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : انتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى تبكيتهم بطريق الغيبة لبيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم ؛ ليعرف أنهم قوم عادتهم الانحراف عن الحق ، والعدول عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور ، حتى كان من شأنهم ترك التوحيد وهو الحق الواضح ، والعكوف على الباطل الظاهر وهو الإشراك بالله سبحانه .

٦١ - (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ . . .) الآية .

انتقال من تبكيت المشركين بآية من آيات قدرته إلى تبكيتهم بآية أخرى من آياتها العظيمة حيث بسط الأرض وسواها ؛ ليتسنى للإنسان والحيوان الاستقرار عليها ، وارتياد أماكنها ، وجعل خلالها وفى أوساطها أنهارا جارية ينتفع بها كل قاطنيها فى شئون حياتهم ، وأقام عليها جبالا ثوابت تمنعها من أن تضطرب بأهلها ، فيختل توازنها ويكون سببا فى فناء من عليها ، كما أن لتلك الجبال فوائدها العديدة ومنافعها الكثيرة .

وجعل - سبحانه - بقدرته مانعا بين الماء العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر . قال ابن عباس : جعل بينهما سلطانا من قدرته ، فلا هذا يغير ذاك ، ولا ذاك يغير هذا[1] .

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) : أى ليس هناك إله مع الله فهو المختص وحده بالإيجاد والإتقان لهذه البدائع التى أوجدها وهى من لوازم الألوهية التى لا يقدر عليها سواه .

وإذ ثبت أن ذلك ليس فى مقدور آلهتهم ، فلماذا يشركونها به فى العبادة ؟ وهى عاجزة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ إن صنيعهم هذا عناد وحماقة ؛ لأن أكثرهم يجهلون الحق مع وضوح آياته ، ولو علموه لتبين لهم بما لا يدع مجالا للشك بطلان ما هم عليه من الشرك ، أو أن أكثرهم لا يعلمون شيئا من الأشياء معتدا به فهم لذلك لا يعلمون ما يتحتم عليهم معرفته من العلم الحق الذى يوجب عليهم إخلاص عبوديتهم له - سبحانه - وحده .

(١) راجع ما كتبناه تفصيلا على ذلك فى قوله - تعالى - فى سورة الفرقان : « وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » ٥٣

(أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ) : المضطر ؛ هو ذو الحاجة المجهود .

(وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ) : أى يرفع عنه الظلم والضر . (خُلَفَآءَ الْأَرْضِ) : هم الذين يرثون سكناها والتصرف فيها . (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : أى يرشدكم بالنجوم ونحوها من العلامات . (بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات قدام المطر بنزوله .

(تَعَالَى اللَّهُ) : أى تنزه عن شركائهم .

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) : أى حجتكم على أن له شريكًا .

التفسير

٦٢ - (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ . . .) الآية .

يقرر الله المشركين بذلك على أنه هو المدعو منهم عند الشدائد المرجو عند النوازل ، وأنه يجيب دعوة المضطر ؛ لما عرفوه من أنه - سبحانه - يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء ، ويوبخهم به على أنهم فى حالة رخائهم وزوال الضرورة عنهم يعودون إلى شركهم .

وكما يجيب - سبحانه وتعالى - دعاء المضطر إذا دعاه ، فإنه وحده يدفع عنهم ما يعتريهم من مكاره وما يتنزل بهم من خطوب ، ويجعلهم خلفاء الأرض لمن سبقهم يتوارثون سكناها

وينعمون بخيراتها ، والتصرف فيها قوماً بعد قوم ، وجيلاً بعد جيل ، ولو أبقى الله الناس جميعًا ولم يجعل بعضهم خلفاء بعض فإن الأرض تضيق بالخلائق ويحصل لهم فيها من المشقة والعنت مالا قبل لهم باحتماله .

ثم وبخهم على شركهم بقوله - سبحانه - : (أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) فإذا لم يكن معه إله فى تلك النعم فلماذا أعرضتم عنه - تعالى - بعد كل ذلك وعبدتم غيره وأنتم تعلمون أنه ليس هناك إله غير الله الخالق المنعم ، قلما تتعظون لقلة تذكركم هذه النعم المذكورة فى الرخاء ، قلة تصل إلى العدم وتجرى مجراه فى عدم الجدوى ، فلو ذكرتموها فى الرخاء لاهتديتم لأنها من الوضوح والظهور بحيث لا يتوقف تذكرها إلا على التوجه إليها ليعلم أنها من خصائص الألوهية التى لا يقدر على الاتصاف بها سواه .

٦٣ - (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) :

أى : إن الله وحده هو الذى يرشدكم إلى الطريق فى ظلمات البر والبحر إذا سافرتم ليلاً حيث جعل لكم النجوم وعلامات الأرض لتهتدوا بها ليلاً ، وهداكم إلى علامات بالأرض إذا اشتبه عليكم الطريق ، كما قال تعالى : « وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »[1] .

ويجوز أن يراد من ظلمات البر والبحر ما يحدث فيها من التباس السبيل على المسافرين ليلا أو نهارًا ، بأن تجعل مفاوز الأرض التى لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات الليل ؛ لأنها تشبهها فى إيجاد الحيرة والتردد لعدم وجود ما يهتدى به فى أرجائها .

(وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :
أى : أنه - سبحانه - هو الذى يبعث لكم الرياح أمام السحب الممطرة مبشرات بنزول المطر رحمة منه بعباده ليغيثهم به من الجفاف والجدب ، وذلك بإروائهم ، وإحياء الأرض بعد موتها بمائها لتنبت من كل زوج بهيج ، كما قال - سبحانه - : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[2] .

---

(١) الآية ١٦ من سورة النحل . (٢) من الآية ٥ من سورة الحج .

وليس مع الله إلٰه يصنع ذلك ، فقد تنزه عن الشريك والنظير بذاته المتفردة بكل خواص الألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال والجلال ، المقتضية لكون المخلوقات جميعها مقهورة تحت سلطانه ، وفى ذلك ما فيه من التحقيق والتقرير وقوة الاستدلال على نفى أن يكون معه – سبحانه – إلٰه آخر .

٦٤ – (أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ . . .) الآية .

كان هؤلاء المشركون يقرون أنه – سبحانه – يبدأ الخلق ويتكفل بالرزق ، وينكرون مع ذلك البعث بعد الموت ، فألزمهم – تعالت أسماؤه – الإقرار بالبعث الذى ينكرونه ؛ لأنه من قدر على الفعل بدءًا كانت الإعادة عليه أهون ، أى : لا أحد سواه يقدر على أن يبدأ الخلق من عدم ثم يعيده بالبعث ، وخوطب به المشركون مع إنكارهم للبعث ؛ لأنه لما وضحت براهينه وتمكنوا من إدراكها جُعِلوا كأنهم معترفون بوقوعه فلم يبق لهم عذر فى الإنكار .

(وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلٰهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

وهو – سبحانه – القادر وحده على أن يرزقكم من السماء والأرض بأسباب سماوية وأرضية رتبها وفق ما اقتضته حكمته مما يدل على أنه ليس هناك – كما يزعمون – إلٰه آخر موجود مع الله يقدر على فعل شىء يذكر .

فإن تمسك أولئك المشركون بعد هذا بدعواهم فقل لهم – أيها النبى موبخًا لهم ومنكرًا عليهم –: أقيموا لنا برهانًا عقليًا أو نقليًا على صحة ما تدَّعُونَ إن كنتم صادقين ، ولن يتأتى لهم الإتيان به مهما حاولوا ، كما قال تعالى : « وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ »[1] .

---

(١) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ[1] وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(الْغَيْبَ) : كل ما غاب عنك ، وجمعه : غيوب .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى لا يعلمون الوقت الذى فيه يبعثون ، يقال : شعر بالشىء من بابى : نَصَرَ وَكَرُمَ ، شعراً مثله ، وشعوراً : علم به وفطن له .

(ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) : أى تتابع علمهم بها عن طريق الأدلة ، وقيل : معناه اضمحل علمهم بالآخرة ، من التدارك وهو التتابع فى الفناء . (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا) : أى فى تردد من تحقق الآخرة نفسها . (بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) : أى لا يدركون دلائلها مع وضوحها ، كأنهم فقدوا أبصارهم ، ومفرده : عَمٍ .

التفسير

٦٥ - (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن أثبت الله تفرده - سبحانه - بالألوهية ، وبين الأدلة الواضحة التى تفيد اختصاصه بالقدرة الكاملة ، والحكمة التامة فى الخلق والتكوين ، وإسداء النعم الجزيلة منة منه وتفضلاً على عباده عقبه بذكر ما لا ينفك عن أن يكون من شأنه وحده ، وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله مما انفرد به ، وتمهيدا لما بعده من أمر البعث .

وقيل : إن هذه الآية نزلت لما سأل الكفار الرسول ﷺ عن وقت الساعة التى وعدوها وألحوا عليه - كما فى البحر - .

(١) لفظ : (إلا) فى قوله : (إلا الله) بمعنى (لكن) أى : لكن الله يعلم الغيب دون من فى السموات والأرض .

والمعنى : قل لهم – أيها النبى – : لا يعلم أحد ممن فى السموات والأرض الغيب إلّا الله فهو وحده الذى ثبت له علم الغيب على جهة اللزوم والاختصاص ، وانتفى عمن سواه حتى الأنبياء .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى وأحمد وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : من زعم أن محمدًا ﷺ يخبر الناس بما يكون فى غد ، وفى بعض الروايات : يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ . . .) الآية .

وعلم الغيب المنفى عن غيره – جل وعلا – هو ما كان للشخص لذاته فى ثبوته له ، وهذا مما لا يعقل كونه لأحد من أهل السموات والأرض ، وما وقع لبعض الخواص من الإخبار ببعض الغيب فلا يقال : إنهم علموه بقدراتهم الذاتية ، ومن قال ذلك كفر قطعًا ، وإنما يقال : أُظهِروا على الغيب وَأُطلِعوا عليه ، ويؤيده أن نسبة علم الغيب إلى غيره – تعالى – لم تجىء فى القرآن الكريم ، وإنما جاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى – سبحانه – من رسول كما قال تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ »[1] .

أمّا ظن الغيب بأمارات فهو ممكن لعباده فلا يُكَفَّر وَلَا يُفَسَّقُ مدعيه ، كما يحصل من علماء الفلك من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر والكواكب ، حين يخبرون بهبوب الرياح شديدة أو معتدلة ، وبكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وبنزول المطر وارتفاع درجة الحرارة أو اعتدالها أو نحو ذلك ، فيقع الأمر كما قالوا ، فليس ذلك من علم الغيب المنفى ؛ لكونه بأسباب وأمارات ، فهو فى واقعه ليس علمًا حقيقيًا بما سيحدث وإنما هو ظن وتخمين بأمارات اقتضته ، وقد تتخلف .

أما العراف الذى يتحدث عن المستقبل ادعاء بأنه على علم بالغيب كقوله لمن يستخبره عن مستقبله : ستكسب مبلغ كذا ، أو ستتزوج فلانة ، أو تفقِد كذا فى سفرك ، أو نحو ذلك فهو كافر – كما قال القرطبى – .

(١) الآية : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

والمؤمنون منهيون عن إتيان العرافين ، فقد جاء فى صحيح مسلم : « من أتى عرَّافًا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى وما يعلم كل من فى السموات والأرض أى وقت يبعثون فيه بعد موتهم ؛ لأن وقت البعث والنشور من جملة الغيب الذى اختص الله - سبحانه - بعلمه ، فلا يحق لهؤلاء المشركين أن يطالبوا نبيهم ﷺ من آن لآخر ببيان وقته بمثل قولهم : « مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] كما لا يحق لهم أن يستنكروه بمثل قولهم : « أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »[2] .

٦٦ - (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن الغيب مما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وفى جملته وقت البعث بعد الموت ، فإنه من الغيوب التى اختص بعلمها العليم الخبير .

وجاءت هذه الآية لتبين أن المشركين وإن لم يؤمنوا بالبعث للحساب والجزاء ، فقد تدارك علمهم بأن لهم آخرة ينتهون إليها ، وتتابع وعيهم بأنهم يبعثون على لسان الصادق المصدوق المؤيد بالمعجزات ﷺ ودلت الأمارات على إمكانه ، فإنه من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة من باب أولى ، كما شهد العقل بمجيئه ولابد ، فإنه لا يعقل أن تزول الحياة الدنيا ولا تعقبها آخرة يجزى فيها المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته ، فإن عدالة الله تأبى ذلك .

فهؤلاء المشركون تدارك علمهم وتتابع على هذا النحو ، وكان عليهم أن يؤمنوا بها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل هم فى شك من مجيئها ، مترددون فى أمرها ، بل هم من ناحيتها عُمْىٌ عن أدلتها ، وكان عليهم أن يطمئنوا إلى مجيئها بقيام الأدلة عليها ، وأن يعملوا لها .

ومن المفسرين من فسر « تَدَارُكَ علمهم بالآخرة » بفناء علمهم بها ، كما يقال : تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا فى الهلاك ، وعلى هذا يكون معنى الآية : بل فنى علمهم بشئون الآخرة ، مع توافر أسبابه ودواعيه بقيام الأدلة الواضحة على مجيئها ، قال صاحب القاموس : بل ادارك علمهم فى الآخرة : جهلوا علمها ولا علم لهم بشىء من أمرها . ا هـ

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة يونس . (٢) سورة الإسراء ، من الآية ٩٨

ولهذا ختم الله الآية بقوله : « بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ » حيث قصروا تقصيرًا فاحشًا بتركهم النظر فى أماراتها وتعاميهم عن أدلتها ، مع أنها لا تخفى على ذوى البصائر وأولى الألباب .

وحاصل معنى الآية : أن علمهم بشئون الآخرة ومنها البعث انقطع وانتهى فى الدنيا ، حتى لم يبق لهم علم بشىء من شئونها ، مع توافر الأسباب الواضحة الدلالة عليها .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) : إنكار لإخراجهم مِن قبورهم أحياء .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أى أباطيل الذين سبقوهم ، وهى جمع إسطار – بكسر الهمزة – وأسطورة – بضمها .

(وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) : أى لا يكن صدرك ضيقًا بمكرهم .

التفسير

٦٧ – (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) :

بيان لجهل الكافرين بالآخرة وعَمَاهم عنها بحكاية إنكارهم للبعث ، والمراد بهم : مشركو قريش فقد أنكروا إخراجهم من قبورهم أحياء إنكارًا شديدًا متكررًا مبالغًا فيه .

وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابًا ليس لتخصيص الإنكار الواقع منهم بالإخراج فى هذا الوقت فقط ، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقًا ، وإن كان الجسد على حاله ،

وإنما ذكر لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج فى حالة منافية له فى زعمهم ، وهى كونهم ترابًا ، وكما أنكروا إخراجهم فقد أنكروا كذلك إخراج آبائهم .

٦٨ - (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استئناف مسوق لتقرير الإنكار ، وصُدِّر بالقسم لزيادة التأكيد ، أى : والله لقد وعدنا هذا الإخراج نحن وآباؤنا من قبل أن يعدنا به محمد ولم نر له حقيقة ولم نعلم له وقوعًا فيما مضى ، ذلك لأن هذا الوعد ما هو إلا أباطيل الأولين حكاها محمد عنهم ،وليس له حقيقة ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٦٩ - (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين : سيروا فى الأرض فانظروا بإمعان وتفكروا كيف كان عاقبة المكذبين للرسل - عليهم السلام - فيما جاءوا به من الإيمان بالله وحده ، وبالمعاد الذى تنكرونه ، فإن مشاهدة عاقبتهم ، وآثار ما حل بهم من العذاب والنكال اللذين لم ينج منهما سوى الرسل - عليهم السلام - ومن اتبعهم من المؤمنين يكفى أن يكون عظة وعبرة لذوى البصائر وأولى الألباب ، ودلالة واضحة على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، وفيه تهديد لهم على التكذيب ، وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم .

٧٠ - (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) :

تسلية للرسول ﷺ أى : ولا تأسف على المكذبين لإصرارهم على الكفر ، وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ويكون صدرك حرجًا من كيدهم وإنكارهم ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك عليهم ، ومظهر دينك فى المشارق والمغارب على من خالفه وعانده : « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[1] .

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(رَدِفَ لَكُمْ) : أى لحق بكم ، ويتعدى بنفسه وباللام .

(مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : أى ماتخفيه من الأسرار ، تقول : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

(وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ) : الغائبة ؛ جميع ما أخفاه الله وغيبه عن خلقه . وتاؤه للمبالغة فى الغيبوبة ، كراوية .

(إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ) :المراد به ؛ اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ،وهو بَيِّنٌ واضح ، أو مُبَيِّنٌ ما فيه لمن يشاء من ملائكته :

التفسير

٧١ ـ (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

يسأل الكفار عن وقت العذاب العاجل الموعود به ، سخرية به ، وإنكارًا له قائلين : متى يحين وقت العذاب الذى وعدتم بأن ينزل بنا إن كنتم صادقين فى إخباركم بأنه آت إلينا ، وواقع علينا ؟ فهموا الوعد بالعذاب من أمرهم بالسير والنظر فى عاقبة أمثالهم المكذبين والجمع فى قوله تعالى : (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) باعتبار شركة المؤمنين للرسول فى الإخبار بذلك .

٧٢ - (قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى : قل لهم - أيها النبى - : عسى أن يكون قد اقترب منكم بعض الذى تستعجلون حلوله ، وتطلبون وقوعه من العذاب ، وكان ذلك عذاب بدر ، أو عذاب القبر ، وهذا المعنى قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

وعسى هنا لتحقق الوقوع لما وعدوا به .

قال الزمخشرى : إن عسى ولعل وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وأنه لا مجال للشك فيه ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده .

وقيل : إن عسى على معناها ، والترجى المفهوم منها قيل : راجع للعباد .

٧٣ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - لذو إنعام كثير فاضل على كافة الناس مع ظلمهم لأنفسهم ، ومن جملة ذلك ترك المعاجلة بالعذاب لهؤلاء المكذبين مع ما يقترفونه من ذنوب وآثام ، وكان على المنعَم عليهم أن يقوموا جميعًا بشكر ربهم على تفضله عليهم ، ولكن أكثرهم أعرضوا عمّا يطلب منهم من شكر وعرفان جحداً لفضل خالقهم الذى أسداه إليهم ، ومنهم أولئك المستعجلون للعذاب .

٧٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - ليعلم ما تخفى صدورهم من الأسرار ومنها عداوتك ، ويعلم ما يظهرون من القول بلا تفرقة بينهما فى إحاطة علمه بهما كما قال تعالى : « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ »[1] .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .

فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه تعالى ، وإنما لأن له وقتًا محددًا لايتعداه بتقديره – جل شأنه – وعلم الله بما تخفيه صدورهم ، وبما تظهره أقوالهم ، فيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما حكى عنهم .

٧٥ – (وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) :

أى : وما من خصلة شديدة الغيبوبة فى السماء والأرض إلا علمها الله ، وأحاط بها ، وأثبتها عنده فى أم الكتاب ، ذلك الكتاب الواضح البين فى نفسه المبين ما فيه لكل من يطالعه وينظر فيه من الملائكة – عليهم السلام – وهو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد به علم الله تعالى ، فهو المبين لكل معلوم ، وقيل : المراد به القرآن الكريم ، فقد أشار إلى كل غائبة فى السموات والأرض ، وبين دلالتها على خالقها – سبحانه وتعالى – .

(إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) : المراد بهم ؛ اليهود والنصارى ، وإسرائيل : يعقوب – عليه السلام – .

(عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) : الواضح البين ، أو الفاصل بين الحق والباطل .

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) : أى ولا تسمع من بطل سمعه وذهب لسبب من الأسباب ، وفعله من

باب علم . فالمذكر أصم ، والأنثى صماء ، والجمع صُمٌّ ، مثل أحمر وحمراء وحُمْر ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أصمه الله .

(بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ) : أى عن كفرهم ، يقال : ضل يَضِل ضلالًا وضلالة : مال عن الطريق فلم يهتد .

التفسير

٧٦ - (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

لما ذكر - سبحانه - ما يتعلق ببدء الخلق ، وإعادة المخلوقات بعد الموت بالبعث ، ذكر ما يتعلق بالنبوة ، ولكون القرآن الكريم أعظم ما تثبت به نبوة نبينا محمد ﷺ . أنزل فيه - سبحانه - ما يقص به على بنى إسرائيل - اليهود والنصارى - أكثر ما اختلفوا فيه ، بإظهار حقيقة أمره فى وضوح وجلاء ، مما يدعوهم إلى الإسلام لو تأملوا وأنصفوا ، وأخذوا به ، ولكنهم أعرضوا وكابروا مثلكم أيها المشركون . وتحزبوا أحزابًا كثيرة ، ولعن بعضهم بعضًا ، ووقع بينهم الجدال والتناكر .

ومن جملة ما اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا أمر عيسى - عليه السلام - فاليهود افتروا ونسبوا إلى مريم ما هى منزهة عنه ، وكذبوا عيسى - عليه السلام - والنصارى تغالوا ، فمن قائل : بأنه إله ، ومن قائل : بأنه ابن الله ، ومن قائل : بأنه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك .

كما اختلفوا فى أمر النبى المبشر به ، فمن قائل : هو يوشع ، ومن قائل : هو عيسى ، ومن قائل : إنه لم يأت إلى الآن ، وسيأتى آخر الزمان ، كما اختلفوا فى شأن الخنزير ، فقال اليهود بحرمة أكله ، وقالت النصارى بحله ، إلى غير ذلك من أمور .

فجاء القرآن بالقول الوسط ، قول الحق والعدل ، حيث بين أن عيسى عبد من عباد الله وأنبيائه ، ورسله الكرام كما قال تعالى حكاية عنه : « قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا »[1] . وبين أن النبى المبشر به هو محمد ﷺ وأن أكل لحم الخنزير حرام .

وبين كذلك أكثر الأمور التى وقع بينهم الخلاف فيها بيانًا شافيًا يقطع كل ريبة وخلاف ، فكان هدى ورحمة لمن أقبل عليه كما قال تعالى :

(١) الآية ٣٠ من سورة مريم .

٧٧ - (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : وإن هذا القرآن لهدى ورحمة لمن أنصف من اليهود والنصارى ، فآمن به ، واهتدى بهديه ، واتبع سبيله ، أو هو هدى ورحمة لكل من آمن به على الإطلاق ، ويدخل فيهم من آمن من اليهود والنصارى دخولًا أوليًّا .

وخص - سبحانه - المؤمنين بالذكر ، مع أنه هدى ورحمة للعالمين ؛ لأنهم المنتفعون به ، أو المراد بهم المستعدون للإيمان بفطرهم النظيفة .

٧٨ - (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) :

أى : إن ربك - سبحانه - يقضى فى الآخرة بين اليهود والنصارى ، فيجازى بحكمه المحق الذى آمن بالقرآن ، والمبطل الذى كفر به ، ويراد بالحكم ما يحكم به ، وهو الحق والعدل ، ولا يقضى - سبحانه - إلَّا به فسمى المحكوم به حكمًا .

أو يحكم بينهم بحكمته بوضع الأُمور فى نصابها ، وإعطائها ما تستحق من جزاء ، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ « بِحِكَمِهِ » جمع حِكْمَة ، كنِعَم جمع نعمة .

وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا بإظهار ما حرفوه ، وبيان الحق فيما اختلفوا فيه وهو سبحانه « الْعَزِيزُ » أى : الغالب الذى لا يُرَد أَمْرُه ، ولا يُعارَضُ قَضاؤُه « الْعَلِيمُ » بكل شىء من الأشياء لا تخفى عليه خافية ، أو هو العزيز فى انتقامه من المُبْطلين ، العليم بما بينهم وبين المحقين .

٧٩ - (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) :

أَمْرٌ لِلرسول ﷺ بالتوكل عليه - جل شأنه - مرَتَّبٌ على ما ذكر من شئونه - تعالى - فإنها موجبة للتوكل عليه وداعية إلى الإنابة إليه ، أى : فتوكَّل على الله الذى عصمك من كيد الكائدين ، وأمدك بتأييده ونصرته على أعدائك ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليهم الشقاوة ، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ؛ لأنك على الحق البيِّن ، وهو الدين القيِّم الذى تنزه عن كل شك أو شبهة ، وفى ذلك بيان بأن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته لا محالة .

٨٠ـ (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) :

أى : إنك ــ أيها النبى ــ لا تستطيع هداية هؤلاء الكافرين إلى شىء ينفعهم لأنهم كالموتى، حيث إنهم فقدوا الحس والعقل والإدراك فلا يَعُون شيئًا ممَّا يسمعون، ولا ينتفعون بما يتلى عليهم من القوارع والزواجر، شأنهم فى ذلك وهم أحياء شأن الموتى فى القبور الذين يستحيل عليك إسماعهم[1] أى شىء ينفعهم، وذلك موجب لقطع الطمع فى هدايتهم، وداع إلى تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه .

وهم كالصم الذين فقدوا أداة السمع يصيح بهم الداعى إلى الحق فلا يسمعون النداء مع أنهم صحاح الحواس، ذلك لأن شأن الأصم عدم السماع ولو كان الداعى أمامه وبمقابلة صماخه فكيف يكون حال هؤلاء الصم إذا ابتعدوا عن الداعى وتولوا عنه مدبرين ؟ لا شك أن عدم سماعهم للدعاء يكون أشد وأقوى، فإنهم مع صممهم معرضون عن الداعى، وفى ذلك من التأكيد والمبالغة فى عدم السماع لدعوة الحق ما فيه ممَّا لا يخفى، وإطلاق الإسماع بعدم ذكر المسموع لبيان عدم سماعهم لشىء من المسموعات .

٨١ـ (وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ) :

أى : ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم، وصرفهم عما هم فيه، وهدايتهم هداية موصلة إلى المطلوب ؛ لأنهم كالعمى يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم مهديين بُصَراء إلا الله تعالى .

(إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى : ما يجدى إسماعك إلا مَنْ علم الله أنهم يؤمنون بآياته ويصدقون بها، وهم الذين ليسوا موتى ولا صمًّا ولا عميًا .

---

(١) قد احتجت عائشة ــ رضى الله عنها ــ بهذه الآية فى إنكارها أن النبى ﷺ أسمع موتى بدر ، فنظرت إلى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية .

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : ما أنتم بأسمع منهم . قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرقة عادة لمحمد ﷺ فى أن الله رد إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ، ولولا إخبار الرسول ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين . أ هـ من تفسير القرطبى . ومن أراد الاستزادة فليرجع إليه وإلى غيره فى تفسير هذه الآية ، والآية ٥٢ من سورة الروم .

وجوز أن يراد بالآيات المعجزات التى أظهرها الله -تعالى- على يديه ﷺ الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية، وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط ، والإيمان بها : التصديق بكونها آيات الله -تعالى- وليست من السحر وغيره .

(فَهُم مُّسْلِمُونَ) : تعليل لإيمانهم بالآيات ، أى : فإنهم مطيعون منقادون إلى الحق بسلوك طريقه السّوىّ وفق إرشاد آياته .

وقيل : فهم مخلصون لله -تعالى- من : الإسلام بمعنى الإخلاص ، كقوله تعالى : « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »[1] أى : أخلص .

* (وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ) : قرب وقوع ما وعدوا به من العذاب بعد البعث .

(دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) : هى دابة كبيرة يخرجها الله قرب قيام الساعة تكلم الناس

(١) من الآية ١١٢ من سورة البقرة .

- من الكلام - وقرأ الكوفيون : « تَكْلِمُهُمْ » - بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام - من : الكلْم وهو الجرح ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح . (فَوْجًا) أى : جماعة .

(مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا) المراد بالآيات : إما القرآن ، أو ما يعمه وسائر الآيات ، مما أقامه الله فى الأنفس والآفاق .

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى : فهم يحبس أولهم على آخرهم ويكفون ، ليتلاحقوا ، يقال : وزعه ، أى : كفه ، وهو من باب وَضع يَضع ، وفسره ابن عباس بقوله : فهم يدفعون ، وفسره ابن زيد بقوله : فهم يساقون ، وهى معان متقاربة .

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا) أى : حل بهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم .

التفسير

٨٢- (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة إنكار قريش للبعث بقولهم : « مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[١] وذكر أنه - تعالى - سوف يقضى بينهم بحكمه ، وسلَّى نبيه عن تكذيبهم إياه ، بأنه ﷺ لا يُسْمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولَّوا مدبرين ، وأنه لا يهدى هؤلاء العمى عن ضلالتهم ، وجاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتأكيد مجىء الساعة وقضاء الله عليهم بما يستحقون من العذاب الهون .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب نزول العذاب الموعود بهم فى نحو قوله تعالى : « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[٢] وذلك عندما يصير الناس إلى حد لا تقبل توبتهم ، ولا يولد لهم ولد مؤمن ، فحينئذ تقوم الساعة - كما ذكره الإمام القشيرى - وفى معناه ما روى عن حفصة بنت سيرين أنها قالت : سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ . . . » الآية ، فقال : أوحى الله إلى نوح أنه : « لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ » قالت حفصة : وكأنما كان على وجهى غطاء فكشف ،

---

(١) من الآية ٧١

(٢) سورة السجدة : ١٣

قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ، لأن الناس ممتحنون ومؤخرون ، لأن فيهم مؤمنين وصالحين ومَنْ قد عَلِم الله أنه سيؤمن ويتوب ، فلهذا أُمهلوا . . ثم قال : فإذا زال هذا وجب القول عليهم فصاروا كقوم نوح ، حين قال الله تعالى : « وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ »[1] انتهى كلامه .

والدليل على أن ذلك يكون قرب قيام الساعة : أن الآية ختمت بقوله تعالى : « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وتلاها قوله تعالى : « وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » كما يدل عليه ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثٌ إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوعُ الشمس من مغربها ، والدجالُ ، ودابةُ الأرض »[2] .

والدابة : اسم للحيوان الذى يدب ويتحرك . . والكلام : ما يحصل به التخاطب والتفاهم ، فماذا عسى أن تكون هذه الدابة التى تكلم الناس بما يفهمونه منها ، ويكون ظهورها من علامات الساعة الكبرى ؟ لابد أن تكون دابة عظيمة فى جسمها وفى تكوينها وفيما يصدر عنها ؛ لتكون آية مقارنة لطلوع الشمس من مغربها ، كما جاء فى صحيح مسلم[3] بسنده عن عبد الله بن عمر أنه قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أولَ الآياتِ خروجًا طلوعُ الشمسِ من مغربها ، وخروجُ الدابةِ على الناسِ ضُحى ، وأيتهما كانتْ قبلَ صاحبتِها فالأُخرى على إثرها قريبًا » .

ويقول السدى فى كلام الدابة : إنها تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام ، وقيل : تكلمهم بما يسوءهم .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

قال القرطبى – شارحًا لهذا القول –: تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه مَن قرُب ومن بَعُد : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، أى : بخروجى ، لأن خروجها من الآيات .

---

(١) سورة هود : ٣٦

(٢) ذكره القرطبى فى تفسير الآية .

(٣) كتاب الفتن فيه .

أما على قراءة تَكْلِمهم فهى من : الكَلْم بمعنى الجَرْح ، ولا منافاة بينها وبين قراءة جمهور القراء ، فإنها تُكلِّمهم بما يسوءهم ويجرحهم ، لانغماس معظم الناس فى الضلال فى آخر الزمان .

وقد جاء فى وصف هذه الدابة آثار متباينة ، فلهذا أمسكنا عن ذكرها ، وحسب القارئ أن يعلم أنها من علامات الساعة ، فلابد أنها شئ هائل يفوق الوصف ، وأنها تخرج لإقامة الحجة على الكافرين ، وتثبيت المؤمنين ، وإغلاق باب التوبة أمام الملحدين .

ومعنى الآية :

وإذا قرب وقوع ما قلناه على الكافرين من قيام الساعة وعقابهم على كفرهم ، أخرجنا لهم من الأرض دابة عظيمة هائلة ، تكلمهم بما يفهمونه عنها ، فتوبخهم على كفرهم وتنعى عليهم أنهم قبل خروجها كانوا بآيات الله وبراهينه لا يصدقون ولا يستيقنون ، وأنه قد حان ميقات فنائهم وقيامهم لرب العالمين ، لحسابهم وعقابهم على ما كانوا يعملون .

٨٣ ، ٨٤ـ(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن[(١)] يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

هاتان الآيتان للتذكير بما يحدث للكافرين بعد حشرهم من التوبيخ على كفرهم بآيات الله ، قبل الحكم عليهم بالعذاب المقيم ، والمراد من الحشر هنا : هو الحشر يوم القيامة .

والمعنى : واذكروا يوم نجمع من كل أمةِ نبيٍّ جماعةً كثيرة هم الذين يكذبون بآياتنا ، فهم يدفعون ويساقون إلى المحشر الذى يجتمع فيه الخلائق ، ويحبس أول الكافرين على آخرهم ، حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمساءلة من المحشر ، حتى إذا جاءوه قال الله تعالى ــ موبخًا لهم ــ : أكذبتم بآياتى التشريعية ، والتكوينية بادئ الرأى ، غير ناظرين فيها نظرًا يجعلكم تحيطون بها علمًا ويدفعكم إلى الإيمان بربوبيتى ووحدانيتى ، أم ماذا كنتم تعملون بعقولكم فى هذه الآيات البينات ، حتى وصل بكم التفكير فيها إلى هذا التكذيب الذى أبعدكم عن الحق المبين ؟

---

(١) مِنْ فى قوله : « من » بيانية ، أى : هم من يكذب بآياتنا .

ولما كان كلا الأمرين لا يستوجب تكذيبهم لوضوح تقصيرهم فيهما ، فلهذا لم يستطيعوا أن يجيبوا ربهم بما يخفف عنهم مسئوليتهم فيها فقال الله -تعالى- عقب هذه المساءلة :

٨٥- (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ) :

أى : ووجب عليهم العذاب الذى قلناه لهم على ألسنة رسلنا إن استمروا على تكذيبهم بآياتنا فهم لا يستطيعون النطق بما يدفع حجتنا عليهم .

واعلم أن الحشر يوم القيامة لجميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، ولكن هذه الآيات اختصت ببيان حشر المكذبين بآيات الله ومساءلتهم ومصيرهم ، لأن السياق واللحاق يقتضى ذلك الاختصاص .

ويرى الشيعة الإمامية أن لفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّمَّن يكذب بِآيَاتِنَا » للتبعيض وليس للبيان ، وأن الآية أفادت أن بعض المكذبين بآيات الله يحشرون ، وليس ذلك صفة الحشر يوم القيامة ؛ إذ يقول الله فى شأنه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » وهذا يدل على أن هذا الحشر الجزئى يكون فى الدنيا لبعض أعداء الله من الكافرين ، لينتقم منهم على أيدى أوليائه وشيعته عند ظهور المهدى آخر الزمان إذ يرجع معه جماعة من أئمة أهل البيت ، ليعاقبوهم بالإذلال والتوبيخ والقتل ، ليفوزوا بثواب نصرة الله ، ويفرحوا بظهور دولته ، وبالجملة فهذه الآية من أشهر ما استدل به الشيعة الإمامية على رجعة أئمتهم ، كما استدلوا بأحاديث رووها بهذا الصدد .

والحق أن ما ذهب إليه الشيعة من رجعة أئمتهم أمر خيالى محض ، والاستدلال عليه بالآية رأى فاسد ؛ فإن الآية ليس فيها عنهم قليل ولا كثير لا فى الرجعة ولا فى غيرها ، والحشر فى لسان الشرع ، هو حشر يوم القيامة ، وهو فى الآية للكافرين جميعًا ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا » كما يحتمل أن يكون للتبعيض ، يحتمل أيضًا أن يكون لبيان الفوج الذين يناقشهم الله ويوبخهم ويعاقبهم بعد الحشر ، والحق أن هذه الآيات الثلاث[1] مسوقة لبيان حال المكذبين لرسل الله يوم القيامة ، كما يقتضيه السياق ،

---

(١) وهى قوله تعالى : « ويوم نحشر ... » إلى قوله تعالى : « ووقع القول عليهم » وأرقامها : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

ولا أدل على ذلك من أن الذى يوبخهم ويعاقبهم هو الله -تعالى- وليسوا أئمة الشيعة كما يزعمون، إذ يقول -سبحانه- : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ » والرجعة التى قال بها الشيعة الإمامية لا يقول بها الشيعة الزيدية بل ينكرونها إنكارًا شديدًا ، وقد ردوها فى كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضًا تعارض روايات الإمامية[1] ، فليرجع إلى كتبهم من أراد المزيد من العلم بفساد رأى هؤلاء الإمامية ، والله ولى التوفيق .

٨٦- (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآية جاءت لتوجيه نظر المشركين وعقولهم إلى بعض آيات الله الكونية الشاهدة بوحدانيته ، وقدرته على البعث والحشر والحساب التى أنكروها ، والمراد من الرؤية هنا : الرؤية القلبية فإنها هى التى توصلهم إلى الإيمان .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المشركون أنا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه بالقرار والنوم بعد الحركة التى أجهدوا فيها أجسادهم وأرواحهم وعقولهم نهارا ، وجعلنا النهار مضيئًا ليبصروا فى ضوئه طرق التقلب فى أمور معاشهم ، إن فى ذلك التدبير المحكم لأمارات لقوم يريدون الإيمان ، فإنه يشهد بأن الذى دبر هذا التدبير العجيب هو إله واحد قادر على بعث العباد وحشرهم وحسابهم ، فإن من قدر على إبدال الظلمة بالنور ، فإنه يقدر على إبدال الموت بالحياة. وَوَصْفُ النهار بالإبصار بدل الإضاءة ، للمبالغة فى إضاءته وبلوغها من القوة إلى درجة جَعْل الإبصار من صفاته ، وذلك على سبيل المجاز .

(١) راجع ما كتبه الآلوسى فى شأن هذه الرجعة إن شئت ، فقد أسهب فيها وأفاض .

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : البوق ، أو جمع صُورة . (فَفَزِعَ) أى : خاف ، وعبر عنه بالماضى لتحققه .

(أَتَوْهُ) أى : جاءوه ، وعبر عنه بالماضى لتحققه . (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) : تظنها ثابتة فى أماكنها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين .

(وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) : تسرع سرعته .

التفسير

٨٧ــ(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية والتى بعدها مسوقتان لإنذار المكذبين بالبعث وتخويفهم من لقاء رب العالمين ، وللعلماء فى تفسير الصور والنفخ فيه ثلاثة أقوال :

(أحدها) : أنه قَرْنٌ يشبه البوق ، والنفخ فيه على الحقيقة ، وسندهم فى ذلك ما أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : ما الصُّور ؟ قال : « قرنٌ ينفخ فيه » والمشهور عند أصحاب هذا القول أن صاحب الصور الذى ينفخ فيه هو إسرافيل ــ عليه السلام ــ .

(وثانيها) : أن الصُّور ــ بإسكان الواو ــ : جمع صورة كالصُّوَر ــ بفتحها ــ والمراد بها : صور الخلائق ، والنفخ فى هذا القول كالذى قبله على حقيقته .

(وثالثها) : أن النفخ فى الصور ليس على حقيقته ، وإنما هو صورة بلاغية بطريق الاستعارة التمثيلية ، شبه فيها حال انبعاث الموتى وقيامهم من قبورهم وسيرهم إلى المحشر تلبية لنداء الله لهم - شبه حالهم ذلك - بحال قيام جيش نفخ لهم فى البوق المعهود ، وسيرهم إلى موضع عُيِّنَ لهم ، وتعقيباً على هـــذا الخلاف يقول الآلوسى ماخلاصته : أن الأول هو قول الأكثرين وعليه المعول ؛ لأن قوله-تعالى-فى آية أخرى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ » ظاهر فى أن الصور مفرد مذكر وليس جمع صورة وإلا لقال-سبحانه-: ثم نفخ فيها أخرى بتأنيث الضمير الراجع إليها ، وجَعْلُ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، فيه إنكار لوجود صور حقيقى ينفخ فيه ، وذلك مخالف لما نطقت به الأحاديث الصحاح . هذه هى خلاصة تعقيب الآلوسى على الخلاف فى حقيقة النفخ فى الصور .

والذى نراه : أن الذى يجب اعتقاده هو أن النفخ فى الصور سوف يكون قطعا ، أما شكل الصور وحقيقته وكيفية النفخ فيه فذلك من الغيبيات التى يوكل علمها إلى علام الغيوب -سبحانه- .

والراجح أن النفخ فى الصور سوف يكون مرتين ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية نفخة البعث التى يقوم الناس عندها لرب العالمين للحساب والجزاء ، كما فى قوله -تعالى- : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[1] » .

واختلف فيما جاء بهذه الآية ، أهى النفخة الثانية ، أم هى النفخة الأولى ؟ وممن ذهب إلى ترجيح أنها النفخة الثانية الإمام أبو السعود ، وقال فى ترجيحه : إنه هو الذى يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه ، وأن المراد بالفزع فى قوله -سبحانه- : «فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ » مايعترى الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجِبِلِّيَّيْن بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق . ثم قال : وقيل : المراد بالنفخ هنا : هو النفخة الأولى ، وبالفزع : الخوف الذى ينتهى إلى الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعـــالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي

(١) الآية ٥١ من سورة يس .

الْأَرْضِ » فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها ، دون من مات قبل ذلك من الأمم .
إلى آخر ماقال .

ورجح العلامة الطيبي أنها النفخة الأولى ، وقوله تعالى الآتى : «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ »
إشارة إلى النفخة الثانية .

ونحن نختار مارجحه العلامة أبو السعود من أن المراد بنفخة الفزع هنا نفخة البعث
مراعاة للمقام ، وفيما يلى تفسيرها على هذا الوجه :

المعنى الإجمالى للآية السابقة :

واذكروا – أيها المنكرون للبعث – يوم ينفخ فى الصور ، ليقوم الناس من قبورهم مُتَّجهين
إلى المحشر ، ليحاسبهم الديان على ماكانوا يعملون – اذكروا مايحدث من الهول والكرب
يومئذ فيفزع له أهل السموات وأهل الأرض ، ويشتد خوفهم واضطرابهم إلا من شاء
الله أن يطمئن ، وهم الشهداء كما جاء فى حديث صحيح ، ولأنهم عند ربهم يرزقون ،
وضم بعض المفسرين إليهم حملة العرش ورؤساء الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل
وعزرائيل والحور العين وخزنة الجنة [1] وكل هؤلاء المبعوثين الفزعين عند هذه النفخة
– كل هؤلاء – يحضرون الموقف بين يدى رب العالمين صاغرين .

٨٨ – ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ :

نقل القرطبى عن الإمام القشيرى أنه قال : وهذا يوم القيامة ، ثم قال : أى : تمر مرّ
السحاب ، حتى لايبقى منها شىء . «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا [2] » إ هـ .

ونحن نوافقه على ذلك مراعاة للسياق .

وإلى هذا الرأى مال صاحب إرشاد العقل السليم فقد قال : إنه مما يقع بعد النفخة
الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق ، يبدل الله – تعالى شأنه – الأرض غير الأرض

---

(١) ولكننا لم نجد فى هؤلاء خبرا صحيحا .

(٢) سورة النبأ ، الآية : ٢٠

ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر . وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى ، لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى : «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لَّاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ»[1]

وقوله سبحانه : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»[2] فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل ، وبروز الخلق لله ــ تعالى ــ لايكون إلا عند النفخة الثانية .

ونقل الآلوسى عن بعض المفسرين أن ذلك مما يقع عند النفخة الأولى ، وعقب عليه بما يرجح كونه بعد النفخة الثانية ، والله ــ تعالى ــ أعلم .

ويُعَقِّبُ الله ذلك التغيير الكونى الخطير بقوله ــ سبحانه ــ : «صُنْعَ[3] اللَّهِ الَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» أى : ماتقدم من النفخ فى الصور وماترتب عليه من فزع أهل السموات والأرض إلا من شاء ، ومجىء الخلائق جميعا تلبية لنداء البعث والحشر ، وتحويل الجبال إلى مايشبه العهن المنفوش[4] ، ومرورها مر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، كل ذلك صنعه الله الذى أتقن كل شىء ، وبناه على الحكم المستتبعة للغايات الجليلة ، وليس ذلك من باب الإخلال والإفساد دون حكمة .

وقد ختمت الآية بقوله ــ تعالى ــ : «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» وهو تعليل لما تقدم من النفخ فى الصور وفزع أهل السموات والأرض ومجيئهم إليه صاغرين للحساب ، وقد اعترض بينهما بذكر تحويل الجبال إلى عهن منفوش يسير سير السحاب فى طريقه إلى الزوال بعد أن كانت جامدة ، توفية لمقام الحديث عن الأهوال التى تحيط بيوم الحساب والجزاء .

(١) سورة طه ١٠٥ ـ ١٠٨ (٢) سورة إبراهيم : ٤٨

(٣) قال الآلوسى : (صنع الله) مصدر مؤكد لما قبله ، وعقبه بكلام جيد خلاصته ما كتبناه فى تفسير هذه الجملة والله الموفق . (٤) أى : الصوف المنشور .

وقال العلامة الطيبى [1] : قوله : «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . .» إلخ .

استئناف وقع جوابا لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إن الله خبير بعمل العاملين ، فيجازيهم على أعمالهم ، وفصَّل ذلك بقوله ـ سبحانه ـ : «مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . .» إلخ .

وهذا الذى قاله الطيبى قريب مما اخترناه فى موقع الجملة مما قبلها ، وربما كان الذى قلناه أقرب وأولى ، والله أعلم .

المعنى الإجمالى للآية : وترى الجبال ـ أيها الإنسان وأنت فى الموقف بعيد عنها ـ تظنها جامدة ثابتة فى مكانها ، ولكنها قد سُحِقتْ وأصبحت كالعهن المنفوش ، وقد سيَّرها الله ـ سبحانه ـ فوق سطح الأرض وجعلها تمر فوقها فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز الأرض التى كانت تواريها ، وهى فى سرعتها تمرُّ كما يمر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز السماء التى كانت تحجبها ، صَنعَ ذلك الصُّنْعَ العجيبَ اللهُ الذى أتقن كل شىء بناء وإزالة لحكم يعلمها ، ومنها : أن يرى الظالمون عظيم جبروته الذى لم يكترثوا به فى دنياهم ، وأن يحاسبهم على أرض جديدة تحقيقا لوعيده : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [2] ولن يصعب عليه حساب عباده ، فإنه خبير بما كانوا يفعلونه فى دنياهم .

---

(١) نقله الآلوسى فى تفسيره لقوله تعالى : (من جآء بالحسنة فله خير منها) .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ ـ ٥١ .

(مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ) : بالفعلة المستحسنة شرعا . (مِن فَزَعٍ) الفزع : الخوف .

(وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ » المراد بها هنا : الشرك ، كما سيأتى بيانه .

(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ) : الوجوه معروفة ، أو هى كناية عن الأنفس ، وكَبُّها : إلقاؤها ، وسيأتى مزيد بيان لذلك .

التفسير

٨٩ــ (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) :

لما ذكر الله ــ سبحانه ــ فى الآية السابقة أنه عليم بما يفعله عباده جاء بهذه الآية والتى تليها لبيان مايترتب على علمه بها من جزائهم عليها . . وفسر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من السلف ــ فسروا ــ الحسنة بشهادة التوحيد ، بناءً على ماروى عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من تفسيره إياها بذلك ، والظاهر أنه ﷺ فسرها بأكملها ، وهذا لاينافى أن كل حسنة من الأفعال لها جزاءٌ فى الآخرة خير منها ، والمراد من الفزع الذى يأمنه أصحاب الحسنات : الخوف من العقاب بالنار ، وهو ماجاء فى قوله تعالى : «لَايَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» وحكى عن الحسن أن ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وهذا لاينافى مايحدث لجميع المكلفين عند البعث بعد النفخة الثانية ، فإنه عام لجميع من فى السموات والأرض كما جاء فى قوله تعالى : «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ» فلا فرق بين أهل الحسنات وأهل السيئات فى الشعور بالفزع والتهيب والرعب عندما يرون أهوال يوم القيامة عقب البعث ، فإن ذلك أمر جبلِّى لايكاد يخلو منه أحد .

ومعنى الآية : من جاء بالفعلة الحسنة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وغيرها ، فله جزاءٌ أعظم منها ، حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله ، جزاءً دائما فى جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين ، وهؤلاء المتقون المحسنون آمنون من خوف العذاب يومئذ مطمئنون ، وثوقا بوعد الله الذى لاسبيل إلى الخلف فيه «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» .

٩٠ـ (وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

المراد بالسيئة هنا : الشرك ، وغلبة السيئات على الحسنات ، ويبقى كل منهما فى النار على حسب حاله ، فالكافر خالد فيها أبدا كما جاء فى وعيده فى القرآن والسنة ، والمؤمن الفاسق يخرج منها بعد أن ينال نصيبه من العقاب فيها ، فإنه لايبقى فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، كما جاء فى صحاح السنة ، ولهذا ختمت الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : لايجزون إلا على حسب أعمالهم .

ومعنى الآية : ومن جاء بسيئة الشرك أو طغت سيئاته على حسناته ، فأُلقوا فى النار على وجوههم [١] قيل لهم : هل تجزون إلا بعقاب مماثل لما كنتم تعملون من السيئات ؟ «وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا» . «وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَايُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا» .

(إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾)

(١) ويجوز أن يكون المعنى : فألقيت نفوسهم فى النار بإطلاق الوجه على النفس مجازا ، كما أطلقت الأيدى عليها مجازا فى قوله ـ تعالى ـ : «... فبما كسبت أيديكم» وقوله : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» .

المفردات :

(هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ) المراد بها : مكة . (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : من المنقادين لملة التوحيد .
(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) : سيجعلكم تشاهدون أمارات سلطانه فى الدنيا والآخرة .

التفسير

٩١ - (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

بينت الآيات السابقة أحداث الساعة وأحوالها وفزع أهل السموات والأرض عندما يفاجأون بها إلا من شاء الله ، ومجيئهم جميعا لحساب ربهم صاغرين ، وأن من جاء بالحسنة فله ثواب خير منها ، ومن جاء بالسيئة عوقب بها جزاء ما كانوا يعملون فى الدنيا ..

وجاءت هذه الآية وما بعدها فى ختام السورة لتقرر أمر التوحيد والبعث اللذين دار عليهما الحوار بين النبيين وأممهم فى ثناياها .

ومعنى هذه الآية : إن الله - تعالى - ما أمر نبيه محمدا ﷺ فيما جاء به من عنده ، إلا بأن يعبد الله رب هذه البلدة - مكة - التى جعلها الله حرما آمنا منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وله وحده كل شىء ، فلا يصح أن يعبد معه سواه ، وما أَمَرَهُ الله - سبحانه - إلا بأن يكون من المسلمين المنقادين لشريعة الإسلام ، فلا سبيل له ولا لغيره أن يحيدوا عن توحيد الله ، ولا أن ينصرفوا عن دين الإسلام .

٩٢ - (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) :

وكما أمر الله نبيه بذلك أمره بتلاوة القرآن وتكرار الإرشاد به ، لتنكشف للناس الحقائق المخزونة فى آياته ، فإن المواظبة على قراءته والوعظ به ، من أسباب انكشاف الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية ، فمن اهتدى بما يسمعه من عظات القرآن ونصائحه ، وبتلاوته من آن لآخر - كما يفعله الرسول - فمن اهتدى بذلك فما تعود منفعة اهتدائه

إلا على نفسه ، ومن ضل عن الحق بمخالفته فى هذه النصيحة ، فوبال ضلاله مختص به ، ثم أمره أن يقول لهم : ما أُمرت فى شأْنكم وفى شأْن غيركم إلا بالإنذار والتخويف من عقوبة الخلاف ، أما استجابتكم لدعوتى فليست من شأْنى بل هى من شأْنكم وشأْن الله معكم ، فما علىَّ إلا البلاغ وقد فعلت .

٩٣ـ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ :

وقل ـ أيها الرسول ـ لقومك : الحمد لله على نعمائه ، حيث أعاننى على تبليغ رسالته إليكم ، وتلاوة القرآن دائما عليكم ، ومتابعة الإنذار لكم ، وإقامة الحجة عليكم ، مع شدة معارضتكم ومخاصمتكم ، سيريكم الله آياته فى دنياكم وأُخراكم ، فتعرفون أنها برهان الحق ودليل الصدق ، وما ربك ـ يامحمد ـ بغافل عما تعملون ـ أيها المشركون ـ فسوف تكون آيات عذابه جزاءً وفاقا لأعمالكم .

وقد حقق الله وعيده لمشركى قريش فى دنياهم ، بما حدث لهم فى غزوة بدر الكبرى ، وسائر انتصارات رسوله عليهم ، وحصول القحط لهم بدعائه ﷺ حيث قال : اللهم اشدد وطأَتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فأَصابهم جوع عنيف اضطرهم إلى أكل الكلاب والجيف والعلهز[1] وسوف يرى أشد منه فى أُخراه من مات منهم على كفره « وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ »

(١) يطلق العلهز على القراد الضخم ، وعلى طعام من الدم والوبر يؤكل فى المجاعة ، وعلى نبات ينبت ببلاد بنى سليم . اهـ : من القاموس .

« سورة القصص »

من السور المكية ، وآياتها ثمان وثمانون ، ووجه مناسبتها لما قبلها أنها تشتمل على شرح بعض ما أجمل فى قصة موسى فى سورتى الشعراء والنمل ، وقد روى عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم النمل ثم القصص .

وقد ذكر الله فى السورة السابقة سؤال الكفار يوم القيامة على جهة التوبيخ ، وفى هذه السورة سؤالهم وتوبيخهم بما هو أوسع مما جاء فى سورة النمل ، كما ذكر هنا فى أمر الليل والنهار أكثر مما ذكر هناك ، إلى غير ذلك من المناسبات .

مقاصدها :

اشتملت هذه السورة المباركة على التنويه بآيات القرآن المبين ، وحكاية ما حدث لقوم موسى من جبروت فرعون ، حيث كان يذبح أبناءهم ويستبقى بناتهم ، وأنه - تعالى - شاء إنقاذهم من هذه المحنة فنجى موسى من القتل ، حيث ألهم أمه أن تصنع له تابوتًا وتلقيه فى النيل ففعلت ، فدفعته المياه إلى قصر فرعون ، فالتقطه آله ليكون لهم عدوًا وحزنًا ، وليخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون وأعوانه ويجعل هلاكه وجنوده على يد من رباه فى كنفه ، وقد ربط الله على قلب أمه فصبرت ، وفرحت به امرأة فرعون وأوصت بعدم قتله قائلة : « لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا » وأوصت أمه أختًا له أن تتبع أثره ففعلت ، وحرم الله عليه المراضع فقالت أخته لأهل فرعون : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ » فقبلوا نصيحتها ، فرده الله بذلك إلى أمه : « كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ » .

ولما بلغ أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا ، وجعل من همه إنصاف بنى إسرائيل : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » واستغفر ربه من ذلك فغفر له : « فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ».

ثم أراد أن يبطش بعدوه فقال له: « أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » فخرج منها متجهًا إلى مدين: « وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » وانتهى أمره مع أبيها إلى الزواج من إحدى ابنتيه على أن يكون أجيرًا عنده ثماني سنين فإن أتم عشرًا فمن عنده، فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله رأى نارًا بجانب الطور وكانت امرأته بحاجة إلى الاستدفاء بالنار لشدة البرد، وحينئذ: « قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّيٓ آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » وهنا شرفه الله بالرسالة إلى فرعون وملئه فرد قائلًا: « إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ » وطلب من الله أن يشرك معه أخاه فى رسالته ليكون عونًا له فإنه أفصح منه لسانًا، فاستجاب له ربه قائلًا: « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » .

فلما جاءهم موسى بآياته وصفوه بالسحر، وقالوا: « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ آبَآئِنَا الْأَوَّلِينَ » وطلب فرعون من وزيره هامان أن يبنى له صرحًا ليبلغ به إلى حيث يطلع إلى إله موسى، وقال: إنه يظنه من الكاذبين. وظل أمرهما فى صراع فترة طويلة، فلما لم تغنه النذر انتقم الله منه ومن جنوده بما حكاه فى قوله ـ سبحانه ـ: « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ »، ثم بين الله ـ تعالى ـ ما لهذه القصة من الدلالة على نبوة محمد ﷺ فقال: « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال: « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ثم عابَتْ هذه السورة عليهم أنهم لما جاءهم القرآن الحقُّ من عند الله معجزة لنبيهم محمد، سألوه أن يأتيهم بكتاب من السماء جملة واحدة، كما جاء موسى قومه بالتوراة جملة واحدة، فأفحمهم الله بأنهم كفروا بما أوتى موسى من قبل قائلين: « سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ » فلا همَّ لهم إلَّا المكابرة والعناد، ثم بينت أن بعض أهل الكتاب لما تُلِيَ عليهم آمنوا به قائلين: « إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا » وأنهم إذا سمعوا لغوهم فيه أعرضوا عنه، ثم نعت عليهم شركهم، وذكرت أن الله تعالى أمر نبيه أن يستخبرهم عمن يأتيهم بضياء يبصرون فيه إن جعل الله عليهم الليل مستمرًا وسرمدًا إلى يوم القيامة، أو يأتيهم بليل يسكنون فيه إن جعل عليهم النهار كذلك؟ وأنه - تعالى - هو الذى تفضل عليهم برحمته فجعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليبتغوا فيه من فضله ولعلهم يشكرون وأنه سوف يناديهم يوم القيامة فيسألهم: « أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » وأن الحق سوف يظهر لله عليهم، بشهادتهم على أنفسهم.

ثم حكت قصة قارون، فبينت أنه من قوم موسى، فلما أغناه الله بغى عليهم وطغى وأعرض عن الآخرة، وزعم أن ما أوتيه على علم عنده، فلم يسندالفضل فيه لرب العالمين، فخسف الله به وبداره الأرض، وما نفعه ماله ولا كبرياؤه ولا أتباعه، ثم ذكرت أن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علوًا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين.

ثم تحدثت عن فضل الله وعدله فى قضائه يوم القيامة، فذكرت أن: « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ». ثم خُتمت السورة بدعاء كل مكلف إلى توحيد الله: « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ».

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح ، من : أبان بمعنى اتضح ، والمبين للأحكام ، من : أبان غيره أى : أوضحه ، وأطلق الكتاب على القرآن لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أو لأنه يكتب فى الصحف . (مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ) : بعض خبرهما .

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : يصدقون حالًا واستقبالًا . (عَلَا فِى الْأَرْضِ) : استكبر فى أرض مصر .

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) أى : جعلهم أصنافًا يَسْتخدم كل صنف منهم فيما يريد ، أو أحزابًا يعادى بعضهم بعضًا ، وللكلام بقية فى التفسير .

(يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ) : هم بنو إسرائيل .

(وَيَسْتَحْيِى نِسَآءَهُمْ) : يبقى إناثهم دون قتل .

التفسير

١ ، ٢ - (طَسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

تقدم الكلام على أسماء الحروف التى بدئت بها بعض السور فارجع إلى مثله فى أوائل سورتى البقرة وآل عمران وغيرهما ، كما تقدم الكلام على (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) فى سورتى يوسف والشعراء فارجع إليها إن شئت .

والمعنى الإجمالى : طسم : هذه الآيات التى جاءت بسورة القصص آيات القرآن المكتوب فى اللوح المحفوظ الواضح الدلالة على الحق ، المبين للحلال والحرام وقصص الأنبياء ، ونبوة محمد ﷺ وأحوال البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء .

٣ـ (نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

نقص عليك - أيها الرسول - بعض أخبار موسى وفرعون وقوميهما قصصًا متصفًا بالحق لقوم يصدقون به حالًا واستقبالًا ، لينتفعوا بما جاء فيها ويتعظوا بمواعظها .

فنى قصة موسى مع قومه يعلمون أن قرابة موسى مع قارون لم تنفعه مع كفره ، وفى قصته مع فرعون يعرفون أن كبرياء فرعون وعلوه وبطشه لم تعصمه من نقمة الله القوى الجبار المتكبر .

٤ـ (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ) :

فرعون : لقب قديم لكل ملك كان يحكم مصر من أهلها . علوه فى الأرض : تجبره على أهلها ، كما قاله ابن عباس ، وقال قتادة : علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره ، وادعى الربوبية والمراد من الأرض : أرض مصر ، والشِّيَعُ : جمع شِيعَة ، وتطلق على كل قوم أمرهم واحد ، يتبع بعضهم رأى بعض ، وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، والمراد من جعل فرعون أهل مصر شيعا : أنه جعلهم أصنافًا يتبعونه فى تحقيق غاياته ومآربه من الشر والفساد ، أو من مختلف الأغراض والغايات من بناء وحرث وحفر وغير ذلك ، أو أنه فرق بينهم وجعل بعضهم عدوًّا لبعض حتى يشتغلوا بأنفسهم ، ويتم له بذلك السيادة عليهم ، وفقًا للقول المعروف عن الجبارين: فَـرِّق تَسُد .

والمراد بالطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل ، فهم الذين كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، والمراد من نسائهم : إناثهم - صغارًا كُنَّ أم كبارًا - وسبب ذلك على ما قيل ، أنه كان يعتمد فى أمور المستقبل على رأى الكهنة والمنجمين ، فقال له قائل منهم : إن هلاكه سيكون على يد ذكر من بنى إسرائيل ، أو أنه رأى رؤيا فعُبِّرَتْ له بذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه : لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا موجب للقتل

والمعنى الإجمالى للآية : إن فرعون علا بجبروته فى أرض مصر وجعل أهلها فرقًا ، فأما مَن كان مِن أهل مصر ، فقد استظهر بهم واستعان على ظلمه وجبروته ، ولم يمس ذكورهم ولا إناثهم بسوءٍ ، وأما بنو إسرائيل فإنه كان يذبح صغار الذكور من مواليدهم خوفًا منهم ، ويستبقى إناثهم لخدمة أهل مصر ، ولأنه كان لا يتوقع الشر من جهتهن ، إنه كان من المفسدين الراسخين فى الإفساد ، لاجترائه على قتل من لا جريرة له بناءً على رأى فاسد ، فإن قتلهم لا يغير من قضاء الله إن جعل هلاكه على يد أحدهم ، فإنه لا ينفعه حذره من قدره .

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(نَمُنَّ) : نُنْعِمَ . « أئِمَّةً » : مقدمين فى أمر الدين .

(وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) : لبعض ما كان يملكه فرعون .

(مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) : ما كانوا يخافون .

التفسير

٥ - (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ونُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن فرعون تجبر فى الأرض ، ولم يكن عادلًا فى حكم مملكته ، إذ أنه جعل بعض أهلها سادة وهم أهل مصر الأصليون ، وجعل بعضًا آخر من ساكنيها عبيدًا مسخرين هم بنو إسرائيل ، وكان يذبح المواليد من أبنائهم الذكور خوفًا على نفسه منهم ، ويستبقى إناثهم أحياءً لخدمتهم وجاء بهاتين الآيتين لبيان الحكمة فى إرسال موسى - عليه السلام -

لفرعون وبنى إسرائيل ، وقد ثبت تاريخيًّا أنه لم يكن لبنى إسرائيل ميراث لأرض مصر الأصلية ولا حكم فيها ، بل الذى ثبت هو خروجهم منها إلى أرض فلسطين ، فلذلك يكون المراد من ميراثهم الأرض إسكانهم أرض فلسطين ، وجعلهم أصحاب ملك فيها كأنها ميراث لهم ، أو أنها كانت تابعة لحكم فرعون فأورثهم الله إياها منه بتسليطهم عليها وقتئذ ، وقد عاقبهم الله بنزع سلطانهم عليها حين أفسدوا فى الأرض ، كما أشارت إليه سورة الإسراء وكما ثبت عندهم فى سفر الخروج .

ومعنى الآيتين : ونريد بإرسال موسى – عليه السلام – أن ننعم على بنى إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وقومه فى أرض مصر ، وأن ننقلهم من الشرك إلى عبادة الله – تعالى – ونجعلهم بذلك أئمة فى الدين يقتدى بهم المشركون من حولهم ، ونجعلهم مستقرين فى أرض فلسطين استقرارًا يشبه الميراث ، وأن نمكن لهم فى الأرض التى أسكناهم فيها ونسلطهم عليها فتكون تحت سلطانهم وحكمهم ما داموا عاملين بشرعنا ، وأن نرى فرعون ووزيره هامان وجنودهما ما كانوا يخافونه من الهلاك على يد رجل من بنى إسرائيل ، حيث أغرقناهم فى اليم أجمعين ، وسيأتى تفصيل ذلك قرآنًا وتفسيرًا إن شاء الله تعالى .

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَيْنَا) : وألهمنا . (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) اليم : البحر . والمقصود به هنا : النيل ، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره . (آلُ فِرْعَوْنَ) المراد بآله : من ينسبون إليه ولو بالخدمة . (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى : فتكون عاقبة أمره أن يكون لهم معاديًا ، ومصدر حزن لهم . (خَاطِئِينَ) : اسم فاعل من خطئ بمعنى تعمد الذنب ، وللكلام بقية فى التفسير . (قُرَّةُ عَيْنٍ) أى : سكون وطمأنينة ، يقال : قرَّت عينه ، تقر - بفتح القاف وضمها - قرة وقُرَّة : إذا سكنت بعد حيرة ، أو بردت وانقطع بكاؤها .

التفسير

٧ - (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

بين الله فى الآية السابقة أنه - تعالى - يريد أن ينعم على بنى إسرائيل بالحرية بعد استعبادهم ويمكن لهم فى الأرض ، ويهلك فرعون وهامان وجنودهما على أيديهم دون أن ينفعهم حذرهم ، وجاءت هذه الآية وما بعدها تحكى قصة الإنعام على الأولين وإهلاك الآخرين .

واختلف العلماء فى تفسير المراد من الوحى إلى أم موسى ، فقال قتادة : إنه بمعنى الإلهام ، وقال جماعة : إنه كان خطابًا مناميًّا كسائر الرؤى الصادقة ، وقال آخرون : إنه كان بملك ، ولا يثبت لها بهذا نبوة ؛ فإن النبوة لا تكون فى النساء بالإجماع ، وقد جاء تكليم الملائكة لغير الأنبياء فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى من بنى إسرائيل حيث أنزل إليهم ملكًا يسألهم أمنياتهم ، فسألوه أن يكشف الله ما بهم ويحسن إليهم ، فأجابهم الله إلى ما سألوه ، فبخل الأولان ، وكان الأخير سخيا فيما أعطاه الله فرضى الله عنه ، وقد روى حديثهم البخارى ومسلم وغيرهما[1] .

---

(١) ارجع إليه فى الجزء الثامن من القرطبى ص ١٨٨ طبع دار الكتب فى تفسير قوله تعالى : « إنما الصدقات » . المسألة الرابعة والعشرون .

وأخرج البخارى فى صحيحه [(١)] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لقد كان فيما كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » . وقد سلمت الملائكة على عمران بن حصين ولم يكن نبيًّا ــ نقله القرطبى.

ويقول مجاهد : كان الإيحاء بالرضاعة والإلقاء فى اليم عند الخوف عليه ــ كان ذلك ــ قبل الولادة ، وقال السدى : لما ولدت أم موسى أُمِرَتْ أن ترضعه وتصنع به ما فى الآية ، وهذا وذاك من باب الاجتهاد .

ويروى أنها صنعت له تابوتًا من نبات البَرْدِىِّ ، وَقَيَّرَتْهُ بالقار ، فلما خافت عليه ألقته فى النيل ، وكان فرعون قد استشار جلساءه فيما يصنعه ببنى إسرائيل ، فأشاروا عليه بقتل مواليدهم من الذكور ففعل ، روى عن ابن عباس أنه لما استحرَّ القتل فيهم قالوا : إن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون ، فتحرمون من خدمتهم ، وتقومون بما كانوا يقومون به ، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر ، ودعوهم عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا ، فيشب الصغار مكان من ماتوا من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، وكانوا قد كثروا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ، فسلط الله القبط عليهم ، فأجمعوا أمرهم على قتل ذراريِّهم الذكور عامًا وتركهم عامًا ، فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى ــ عليه السلام ــ فكان من أمره ما قصَّ الله ــ تعالى ــ .

وقد اشتملت هذه الآية على أعلى صور البلاغة ، يروى أن امرأة أنشدت شعرًا فمدح الأصمعى فصاحتها وبلاغتها ، فقالت : أبعد قوله ــ تعالى ــ : (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ...) وقد جمعت بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

وتفصيل ذلك : أن (أَوْحَيْنَا) و (خِفْتِ) خبران ، و (أَرْضِعِيهِ) و (أَلْقِيهِ) أمران ، (وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى) نهيان ، و (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) بشارتان ، فما أعظم وأبلغ القرآن ، إذ يجمع كل ذلك فى هذه الآية القصيرة .

---

(١) فى كتاب الأنبياء ، باب : مناقب عمر .

والمعنى الإجمالى للآية : وأعلمنا أم موسى أن ترضعه وقتما تكون آمنة عليه ، فإذا خافت عليه من الجواسيس ألقته فى تابوت فى النيل ، كما أعلمناها أنه موضع رعايتنا ، فلا تخاف عليه ضَيْعَةً، ولا خطرا من عدم رضاعه ، ولا تحزن على مفارقته إياها إنا سنرده إليها عن قرب ونجعله من المرسلين حينما يبلغ سن الرسالة .

وهذا ما نراه فى معنى الآية الكريمة حسب نصها ، وللمفسرين كلام كثير حول قصة وضعه وإخفائه وخوفها عليه من جواسيس فرعون ، وننقل فيما يلى ما قاله ابن كثير فى ذلك فإنه احتاط فيه أكثر من غيره — وإن لم نجد له سندًا — ونراه تصويرًا للحال حسب الخيال أقرب من أن يكون حكاية للمقال .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنو إسرائيل ، فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك — إذا استمر هذا الحال — أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا ، فولد هرون فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى — عليه السلام — فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها ، لا يقبَلُها[1] إلا نساء القبط فإن ولدت جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا — قبحهم الله — فلما حملت أم موسى — عليه السلام — لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا ، وخافت عليه خوفًا شديدًا ، وأحبته حبًّا زائدًا ، وكان موسى — عليه السلام — لا يراه أحد إلا أحبه ، قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » ، فلما ضاقت ذرعًا به ألهمت فى سرها ، ونُفِث فى رُوعها كما قال تعالى : (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . .) الآية . وذلك أن دارها كانت على حافة النيل ، فاتخذت تابوتًا

---

(١) يقال : قبلت القابلة المرأة : إذا تلقت ولدها حين ولادته .

ومهدت له فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه جعلته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر، وذهلت عن ربطه، فذهب مع الماء حتى مَرَّ به على دار فرعون[1]، فكان من أمره ما قَصَّ الله - تعالى - بقوله :

٨ - (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) :

الفاء فى قوله : (فَالْتَقَطَهُ) أفصحت عن جمل مقدرة تعرف من السياق ، أى : فنفذت ما أمرت به من إرضاعه ثم إلقائه فى اليم عندما خافت عليه . والمراد من آل فرعون : أتباعه وجواريه، ومن التقاطه : أخذه، والتعبير عنه بالالتقاط للإيذان بأنهم أخذوه بإعزاز واهتمام كما يهتم باللقطة، قال ابن كثير فى تصوير ذلك : فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتحنه قبل أن تفتحه هى، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأبهاه، فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراده الله من كرامتها، وشقاوة زوجها[2] .

واللام فى قوله : (لِيَكُونَ) لام العاقبة، وليست لام التعليل ؛ فإنهم التقطوه ليكون لهم قرة عين، لا ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، أى : فكانت عاقبة التقاطه أنه كان عدوًّا لهم ومصدر حزن، لا قرة عين ومصدر فرح وغبطة، حيث كان من أمره معهم ما قص الله .

ومن المفسرين من جعل اللام هنا للتعليل، على معنى أن الله قيضهم لالتقاطه، ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم وخوفهم ولهذا قال عقبه : (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) .

ولفظ : (خَاطِئِينَ) إما من الخطيئة، وهى الإثم[3]، وإما من الخطأ ضد الصواب[4]، ويكون عن غير عمد .

---

(١) انتهى كلام ابن كثير مع تصرف يسير . (٢) ابن كثير مع تصرف قليل .

(٣) ويطلق عليه الخِطْء أيضا - بكسر الخاء وسكون الطاء - وفعله : خَطِئ - بفتح فكسر - إذا تعمد الذنب .

(٤) وفعله : خطئ أيضا فى بعض لغات العرب ، أو : هو اسم فاعل من أخطأ على غير قياس .

والمعنى الإجمالى للآية : ففعلت ما أوحاه الله إليها من إرضاعه ثم إلقائه فى اليم عندما خافت عليه ، فجرى به الماء إلى قصر فرعون ، فأخذه أتباعه بعناية وحرص وفرح كما تؤخذ اللقطة ـ أخذوه ـ لتكون عاقبته أن يصير لهم عدوًا مخاصمًا فى الحق ، ومصدر حزن دائم لهم ، حيث كان سببًا فى غرقهم فى اليم وحزن أهليهم عليهم ، عقابًا لهم على كفرهم بربهم وعصيانهم لرسولهم ، إن فرعون وهامان وزيره وأعوانه كانوا آثمين باستعباد بنى إسرائيل وظلمهم وقتلهم ذكرانهم ، وكفرهم بآيات ربهم ، كما كانوا مخطئين فى تقديرهم نجاتهم بقتل ذكور بنى إسرائيل فقد جحدوا أن الله شديد العقاب .

٩ ـ (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ[1] لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[2]) :

لم يأت فى القرآن ولا السنة اسم امرأة فرعون ، وجاء اسمها (آسية بنت مزاحم) عند عدد من المفسرين ، ويبدو أنه اسم عربى ، فهل هى من ذرية العماليق الذين حكموا مصر وكانوا عربًا ، أم كانت من قبيلة من قبائل العرب ؟ ويبدو لى أنه لا سند له ؛ فلذا لا نجزم بصحة هذه التسمية وندعها لعلام الغيوب .

قال القرطبى : يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت صبيًّا صغيرًا فرحمته وأحبته فقالت لفرعون : « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ » أى : هو قرة عين لى ولك .

وقال ابن كثير : يعنى أن فرعون لما رآه همّ بقتله ؛ خوفًا من أن يكون من بنى إسرائيل ، فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاج عنه وتُحَبِّبه إلى فرعون ، فقالت : (قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ) فقال : أمَّا لك فنعم ، وأمَّا لى فلا ، فكان كذلك ، وهداها به ، وأهلكه الله على يديه . ا هـ.

وقد نقل ابن كثير عن النسائى أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يحلف به لو أقرَّ فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها » .

---

(١) وقدمت نفسها عليه لما تعلمه من حبه إياها ، و إيثار مصلحتها على مصلحته . (٢) جملة (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون ، والتقدير : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون وجوز كونه حالا من القائلة والمقول له ، والمراد بالجمع اثنان ، وقيل غير ذلك .

والخطاب فى (لَا تَقْتُلُوهُ) إمَّا موجه منها إلى فرعون على طريقة التعظيم ، حيث خوطب خطاب الجمع ، كما قال الشاعر : فقلت ارحمونى يا إلٰه محمد .

وإمَّا موجه إلى المأمورين بقتل الصبيان ، كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى ، آنست منه بادرة أمن جديد ، فالتفتت إلى خطاب المأمورين بقتل الصبيان فنهتهم عن قتله ، معلِّلةً ذلك بقوله ـ تعالى ـ حكاية عنها : «عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا» أمَّا نفعه لهم فلما رأته فيه من مخايل النجابة ، وأما اتخاذه ولدًا فلما رأته فيه من مخايل الشرف اللائق بتبنى الملوك ، ولم يكن لها منه ولد .

والمعنى الإجمالى للآية : وقالت امرأة فرعون حين بهرها حسن موسى ـ قالت لفرعون أو لأعوانه ـ : لا تقتلوه وذروه حيًّا لعله ينفعنا نفعًا جزيلًا نتوقعه منه ، أو نتخذه ولدًا ونتبناه حيث لا ولد لنا ، وهم لا يدرون ما يُخبئه لهم القدر ، من هلاك فرعون وجنوده وإنقاذ بنى إسرائيل من عبوديتهم على يديه .

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(فَٰرِغًا) أى : خاليًا من كل شىء إلَّا من شأن موسى ، أو خاليًا من التعقل وحسن التصرف . (إِن كَادَتْ لَتُبْدِى[1] بِهِۦ) : إنها كادت لتعلن أمره للناس .

(لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) الربط على القلب : مجاز عن التثبيت بالصبر .

(لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) : لتكون راسخة الإيمان بصدق وعدنا برده .

---

(١) (إنْ) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام فارقة بينها وبين (إن) النافية ، أى : أنها قربت أن تصرح بموسى وحاله معها .

(قُصِّيهِ): تَتَبَّعِي أَثَرَه وتعرَّفي خبره .

(فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ) : أبصرته عن بعد .

التفسير

١٠ - (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) :

اختلف العلماء فى تفسير فراغ قلب أم موسى ، فمنهم من فسره بخلوه من كل شىء إلَّا من أمر موسى ، وصح ذلك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - كما روى ذلك التفسير عن ابن مسعود والحسن ومجاهد وعكرمة .

ومنهم من فسَّره بالخلو من الصبر ، ومنهم من فسره بنسيانها وعد الله برده إليها من اليم، وقال أبو عبيدة : فارغًا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق ، وأن فرعون عطف عليه وتبناه - كما يقال : فلان فارغ البال ، وقال آخرون : فارغًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه فرعون كما فى قوله - تعالى - : « وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ » أى : لاعقول فيها .

فعلى رأى ابن عباس يكون معنى الآية : وصار قلب أم موسى فارغا من كل شىء إلا من أمر موسى حيث ألقته فى البحر ، ولاتدرى أين ذهب الماء به ، إنها كادت لشدة وجدها وحزنها على فراقه ، لَتُظْهِرُ أنها ذهب ولدها فى البحر ، وتخبر بحالها معه ، لولا أن ثبتها الله وصبرها لتكون من الملتزمين بتصديق الله فى وعده ، وعلى رأى أبى عبيدة : وصار فؤاد أم موسى فارغا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق ، وأن فرعون وامرأته تبنَّياه . إنها أوشكت أن تبوح بأمره وتكشف سره إلى آخر المعنى السابق .

١١ - (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

كان لموسى - عليه السلام - أخت كبرى تحسن تنفيذ ماتكلف به ، وكان اسمها مريم - كما قيل - فلما ألقته أمه فى البحر قالت لأخته هذه : تتبعى أثره واعرفى خبره لتعرف مصيره ، فأبصرته عن بعد وأهل فرعون لايشعرون أنها أخته ، وأنها تتعرف حاله ومصيره .

* (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(حَرَّمْنَا) : منعنا ، فالتحريم مجاز عن المنع ؛ لأن من حُرِّم عليه شيء فقد مُنِعَه .

(الْمَرَاضِعَ) : جمع مُرْضِع ؛ وهي المرأة لها ولد ترضعه فإن وصفتها بإرضاع الولد قلت : مرضعة .

(يَكْفُلُونَهُ) : يتولّونه ويقومون على تربيته ورضاعته .

(أَشُدَّهُ) : قُوَّته ، وهو مابين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة كما ذكره صاحب القاموس، وقال البيضاوى : هو من ثلاثين إلى أربعين سنة ، وهو واحد جاء على بناء الجمع ، كآنُك[1] ، ولا نظير لهما ، أو جمع لا واحد له .

(وَاسْتَوَى) : واعتدل وتمَّ وبلغ المبلغ الذى لايُزَاد عليه ، واستوى الرجل : بلغ أَشُدَّه أو أربعين سنة .

(حُكْمًا) أى : حكمة .

(وَعِلْمًا) : ومعرفة وفهما ، وعَلِمه ـ بكسر اللام ـ علما : عَرَفه .

التفسير

١٢ ـ (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) :

(١) الآنك : الرصاص .

لما أصبح موسى بدار فرعون وأحبته زوجته وطلبت منه الإبقاء على حياته قائلة : «قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» عرضوا عليه المراضع التى كانت لديهم ، فلم يقبل منهن ثديا ، فذلك قوله ـ تعالى ـ : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ . .) إلخ .

والمعنى : منع الله موسى أن يُرْضَع ثدى امرأة قط ـ قال ابن عباس : لايُؤْتى له بمرضع فيقبلها ، وهذا تحريم منع لاتحريم شرع . قال امرؤ القيس :

جالت لتصرعنى فقلت لها اقصرى إنى امرؤ صَرْعِى عليك حرام

أى : ممتنع .

وقد منعه الله ـ سبحانه ـ أن يرتضع ثدى امرأة غريبة ، حتى يحدث ما أراده ـ سبحانه ـ من قبل حضور أخته التى كانت تتبعه .

قال ابن كثير : وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضِع غير أمه . ولأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل ذلك سببا لرجوعه إليها .

فاغتمّ آل فرعون لامتناعه عن الرضاعة وأهمّهم ذلك وخافوا عليه التلف والهلاك . وتلمّسوا له المراضع ، فلما رأتهم أُخته حائرين فيمن يرضعه قالت : ألا أرشدكم إلى أسرة كريمة تكفله وتتعهده بالرضاع والتربية وتقوم برعايته ، ولاتقصر فى خدمته ، وهم له حافظون ومخلصون فى رعايتهم له ، فلما قالت لهم ذلك طلبوا هذه المرضع ، فلما حضرت دخلوا بها عليه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، واستدعت زوجة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلا ـ وهى لاتعرف أنها أُمّهُ الحقيقيّة ـ وحين طلبت أم موسى أن تـأْخذ معها موسى لترضعه فى بيتها أجابتها امرأة فرعون إلى ذلك . وأجرت عليها النفقة والإحسان الجزيل ، وهكذا رجعت أم موسى بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق واسع ، ولهذا جاء فى الحديث : «مثل الذى يعمل ويحتسب فى صُنعه الخير كمثل أم موسى تُرْضع ولدها وتَأْخذُ أجْرَها» .

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل ، فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فهو الذى جعل لمن اتقاه عند كل هم فرجا ، ومع كل ضيق مخرجا ، ولله در القائل :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

١٣ - (فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أرجع الله موسى إلى أمه كى تطيب نفسها وتسرّ بعودته إليها ، ولاتحزن بفراقه ، ولتزداد علما بأن جميع ماوعد الله حق لاخُلف فيه من رَدِّه إليها وجعله من المرسلين ، بمشاهدة بعضه ،وقياس بعضه عليه ،ولكن أكثر الناس لايعلمون أنه حق فيرتابون ، ويشبه أن تكون جملة «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» تعريضا بما فرط من أمه حين سمعت بخبر موسى ،ووقوعه فى يد عدو الله فرعون ، فنسيت وعد الله فجزعت وأصبح فؤادها فارغا بعد أن أضحى وليدها الرضيع كالحمل الوديع فى عَرين الأسد .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) : حكمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة ، كما قال تعالى : «وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ» .

وقال القرطبى : (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) يعنى أكثر آل فرعون لايعلمون ، أى : كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء .

١٤ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ) :

لما ذكر الله - تعالى - مبدأ أمر موسى - عليه السلام - ذكر أنه لما بلغ أَشُدّه وكمل وتم تضجُه أعطاه الله الحكمة والعلم والمعرفة والحلم ، ومثل ذلك الجزاء الذى جزينا به موسى وأمه نكافىء المحسنين على إحسانهم .

واختلف فى زمان بلوغ الأشد والاستواء ، أخرج ابن أبى الدنيا من طريق الكلبى عن ابن عباس أنه قال : الأَشُدُّ مابين الثانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواءُ مابين الثلاثين

إلى الأربعين ، وأخرج ابن حميد عن مجاهد أنه قال : الأَشُدُّ ثلاث وثلاثون سنة ، والاستواءُ أربعون سنة ، وهي رواية عن ابن عباس .

ونقل عن الزجاج : أن الأَشُد مابين الثلاثين إلى الأَربعين ، واختاره بعضهم لموافقته لقوله تعالى : «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » لأَنه يشعر بأَنه مُنْتَهٍ إلى الأَربعين ، والحق أن بلوغ الأَشُد فى الأَصل هو الانتهاءُ إلى حد القوة وذلك وقت تمام النمو وغايته ، والاستواءُ : تمام العقل وكماله ونضجه ، وذلك يختلف باختلاف الأَقاليم والأَعصار والأَحوال ولذا وقع له تفاسير كثيرة فى كتب اللغة والتفسير .

كما اختلف فى المراد من الحُكْم والعِلم ، قال الزمخشرى : العلم : التوراة ، والحُكم : السنة ، وحكمة الأَنبياء ــ عليهم السلام ــ : سنتهم ، قال تعالى فى سورة الأَحزاب : «وَاذْكُرْنَ مَايُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ » الآية : ٣٤

وقيل : آتيناه سيرة الحكماء والعلماءِ وأَخلاقهم وسَمْتَهم قبل البعثة ، لأَن استنباءه ــ عليه السلام ــ كان بعد وَكْزِ القبطى ، والهجرة إلى مدين ورجوعه منها .

(وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(فَٱسْتَغَٰثَهُ) : فطلب غوثه ونصره ومساعدته . (شِيعَتِهِ) شِيعةُ الرجل ــ بكسر الشين ــ : أتْباعُه وأنصارُه ، ويقع على الواحد وغيره مذكرا ومؤنثا ، وقد غلب على كل من يتولى عليا وآل بيته حتى صار اسما خاصا بهم .

(فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ) : فضربه بِجُمْع كفه [1] ، وقد يطلق الوكز على معنى الطعن والدفع . (فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) قال الآلوسى : أنهى حياته ، أى : جعلها مُنْتهية مُتقضِّية .

(ظَهِيراً) : مُعِيناً ومساعدا . (يَتَرَقَّبُ) : ينتظر ويترصّد المكروه .

(اسْتَنصَرَهُ) : طلب نصره ومعاونته . (يَسْتَصْرِخُهُ) : يستغيث به .

(يَبْطِشَ) : يأُخذه بالعنف والشدة والبأس . (جَبَّاراً) الجبار : اسم من أسمائه تعالى ، والجبار : العظيم القوى ، وكل عات ، ومن يقاتل فى غير حق .

التفسير

١٥ - (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) :

ذكر - سبحانه وتعالى - قصة قتل موسى ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، ثم ماقدَّر له بعد ذلك من الإكرام والنبوة والتكليم فقال :

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا . . .) إلخ.

قال ابن عباس : دخل موسى مدينة -منف- من أرض مصر فى وقت لايعتاد دخولها أو لايتوقَّعونه فيه ، وكان - كما رُوى عن الْحَبْر - وقت القائلة ، وفى رواية عنه : بين العشاء والعتمة .

وإزاء هذا الخلاف فى الرواية عن ابن عباس ، نرى أن التعيين لامبرر له ، فيكفى أنه وقت غفلة ، والله يعلم أكان ليلا أم نهارا ؟

وقال ابن إسحاق : هى مصر ، وكان موسى - عليه السلام - قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختفى وغاب ثم دخلها متنكرا ، فوجد فيها رجلين يتنازعان ويتحاربان أحدهما ممن شايَعَهُ وتابَعَهُ ، وهم بنو إسرائيل ، والآخر من مخالفيه وهم القبط ،

---

(١) فى القاموس : جُمع الكف - بالضم - وهو حين تقبضها .

فاستعان الإسرائيلىُّ بموسى وطلب منه نصره ومساعدته على خصمه القبطى ، واستجاب له موسى وأعانه وضرب القبطى فقتله من غير قصد ، ثم أسف موسى وقال : إن إقدامى على هذا من تزيين الشيطان وإغوائه ، إن الشيطان للإنسان لعدو ظاهر العداوة واضح الضلال والإضلال .

واختلف فى سبب تقاتل هذين الرجلين ، فقيل : كان أمرًا دينيًا ،وقيل : كان أمرًا دُنْيويًا ، رُوى أن القبطىَّ كلف الإسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأَبى ، فاقتتلا لذلك ، وكان القبطى - كما روى عن سعيد بن جبير - خبازاً لفرعون ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٦ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

قال موسى - مُتَضَرِّعا داعيا ربه -: يارب إنى أسأْت إلى نفسى ، بما فعلت من ضرْبٍ ترتب عليه القتل، وكان فيه ذهابُ النفس ، فاغفر لى ذنبى ، وهكذا ندم على عمله فَحَمَلَهُ ندمُه على الرجوع لربه والاستغفار من ذنبه فغفر الله له .

ولايشكل ذلك على القول بأَن الأَنبياء معصومون عن الكبائر قبل الرسالة وبعدها ، لأَن الوكز من الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأً كما قاله كعبٌ وغيره - بل قيل : لايشكل أيضا على القول بعصمتهم عن الصغائر والكبائر مطلقا لجواز أن يكون - عليه السلام - قد رأَى أن فى الوكْز دَفْعَ ظالم عن مظلوم وتخليص ضعيف من قوىّ ، ومنْعَ معتدٍ من اعتدائه ، ففعله غيرَ قاصد به القتل ، وكأَنه - عليه السلام - بعد أن وقع منه ماوقع تأَمل ، فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز ، وأَنه لم يتثبت فى أمره لما اعتراه من الغضب ، فعلم أنه فعل خلاف الأَوْلى بالنسبة إلى أمثاله ، فقال ماقال من أنه من عمل الشيطان على عادة المقربين فى استعظام خلاف الأَوْلى :

١٧ - (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ) :

قال موسى - خاضعا سائلا ربه متوجها إليه -: يارب بحق إنعامك علىّ بالمعرفة والحكمة والتوحيد ، وحفظى من شر فرعون وقومه وفقنى للخير والصواب ، فإن وفقتنى إلى ذلك

فلن أكون عونا ومساعدا للكافرين والمخالفين لأوامرك ، وعن ابن عباس : لم يستثن ، فابتلى به مرة أخرى ، يعنى : لم يقل : فلن أكون إن شاء الله .

وقيل معناه : بسبب ما أنعمت على من قوة الجسم ومتانة التركيب وغير ذلك من النعم أشكرك ، فلن أستعمل نعمك فى مظاهرة من تؤدى معاونته إلى الوقوع فى جرم وإثم .

النهى عن معاونة الظلمة :

احتج أهل العلم بهذه الآية على منع معاونة الظلمة وخدمتهم ، أخرج عبد الله بن الوليد الرصافى : قلت لعطاء بن رباح : إن أخى ليس له من أمور السلطان شئ إلا أنه يكتب له بقلم مايدخل ومايخرج ، وله عيال ، ولو ترك ذلك لاحتاج واستدان ، فقال : مَن الرأس ؟ قال : خالد بن عبد الله القسرى ، قال : أما تقرأ ماقاله العبد الصالح : « رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ » فلا يُعينهُم أخوك ، فإن الله يعينه . ذكره القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ، ولا يكتب له ، ولايصحبه ، وإن فعل شيئا من ذلك كان معينا للظالمين ، قال تعالى : « وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » فإذا كان الرُّكُونُ إلى الظلمة أو العمل معهم موجبا لغضب الله وسخطه ، مُعَرِّضا لعقابه وناره ، فماذا يكون حال من انغمسوا منهم فى شرورهم وآثامهم ، وشاركوهم فى ظلمهم وأعانوهم على القتل والتشريد للأحرار الصالحين ؟ بل من كانوا أداة تعذيب وقهر وظلم للأبرياء ؟ لاشك أن عقابهم أشد وعذابهم أعظم .

١٨ـ (فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ) :

فأصبح موسى فى مصر بعد قتله القبطى فزعًا يتوقع أن يصيبه الأذى من القوم بسبب قتله المصرى ، وقيل : خائفًا وقوع المكروه من فرعون ، يترقب نصرة الله عليه ، فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى نصره بالأمس وساعده وقَتَل القبطى بسببه يستغيث به مرة ثانية على

مصرى آخر ، فنهره موسى وزجره قائلًا له : إنك لظاهر الغواية كثير الشر ؛ لأنك تسببت فى قتل رجل ، وتقاتل آخر ، ودعوتنى مرة ثانية لنصرتك ومساعدتك .

١٩ - (فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَامُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) :

أى : فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الذى هو عدوٌّ لهما توهم الإسرائيلى المستصرخ لضعفه وذلته أن موسى يريد البطش به ، فقال له - يريد أن يدفع عن نفسه - : (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . . .) الآية - ولم يكن أحد يعلم بقتل موسى للقبطى أمس سوى هذا الإسرائيلى ، لأن ذلك كان والناس فى غفلة ، فلما سمع القبطى ذلك تلقفه من فمه ، ثم ذهب به إلى بيت فرعون ، فألقاها عنده ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى . . هكذا قال ابن كثير ، وكون الخطاب من الإسرائيلى لموسى هو رأى ابن عباس ، وهو الذى قال به ابن كثير كما تقدم .

وقال الحسن : قاله القبطى الذى هو عدوٌّ لهما ، كأنه عرف من قول موسى للإسرائيلى : (إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ) أنه الذى قتل القبطى بالأمس من أجله ، ولما انتشر الحديث ووصل - بأية صورة - إلى فرعون وملئه هموا بقتل موسى - عليه السلام - فخرج مؤمن من آل فرعون - قيل : هو ابن عم فرعون - ليخبره بذلك وينصحه ، كما قال عز وجل :

(وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْمَلأُ) كجبل : الأشراف ، والقوم ذوو الشارة والتجمع .

(يَأْتَمِرُونَ بِكَ) : يتشاورون بسببك ، وسمى التشاور ائتمارًا لأن كلاًّ من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر بأمره ، والائتمار والمؤامرة : المشاورة والهم بالشر .

(سَوَآءَ السَّبِيلِ) : الطريق السوى .

التفسير

٢٠ - (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) :

المعنى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون من أقصى المدينة يسرع فى مشيه لمزيد اهتمامه بإخبار موسى ونصحه قال : ياموسى إن وجوه قوم فرعون والأشراف منهم يتشاورون فى أمرك ويشير بعضهم على بعض بقتلك قصاصًا للقبطى الذى قتلته بالأمس ، فاخرج من مصر قبل أن يظفروا بك ، إنى لك من الناصحين المخلصين ، ولما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون وكبار دولته فى أمره كان ما قص الله بقوله :

٢١ ـ (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فخرج موسى ـ عليه السلام ـ من مصر ممتثلًا نصح ذلك المؤمن خائفًا يتوقع أن يتعرض له أعداؤه بالأذى فى الطريق ، يتلفت خشية أن يُدْرَكَ ، يقول ضارعًا إلى الله ربه أن يحفظه وينجيه من اعتداء المعتدين ، من فرعون وقومه .

٢٢ ـ (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ) :

ولما خرج موسى ـ عليه السلام ـ فارًا بنفسه منفردًا خائفًا ، وصرف وجهه ناحية مدين ـ قرية شعيب ـ ورأى حاله من خلوه من زاد وغيره ، وعدم معرفته بالطريق فوَّض أمره إلى الله ـ تعالى ـ راجيًا أن يهديه الطريق الأقوم السوى ـ طريق الخير والنجاة ـ قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلَّا حسن ظنه بربه ، وقال ابن كثير : حقق الله له ما طلبه ، وهداه إلى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديًا مهديًّا .

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ) : وصل إليه ، والوِرْد – بالكسر – : الإشراف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله ، والنصيب من الماء ، والقوم يردون الماء . (تَذُودَانِ) : تدفعان وتمنعان غنمهما عن الماء ، ومنه قول الرسول ﷺ : « فَلَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضى » أى : ليُطْرَدَنَّ

ويمنعن . (مَا خَطْبُكُمَا) : ما شأنكما ؟ وفى القاموس : الخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ، والجمع : خُطوب . (يُصْدِرَ) : قرأ ابن عامر وأبو عمرو : (يَصْدُرَ) – بفتح الياء – من صدر ، ضد ورد ، أى : يرجع الرعاة بأغنامهم ، وقرأ الباقون : (يُصْدِرَ) من أصدر بمعنى أرجع ، أى : حتى يُرْجعوا مواشيهم . (الرِّعَآءُ) : جمع الراعى ، وهو كل من ولى أمر الحيوان وغيره ولاحظه محسنًا إليه ، وقام على حفظه ومراقبته . (تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ) قال أبو البقاء : تأجرنى من أجرته إذا كنت له أجيرًا ، كقولك : أبَوْتُهُ إذا كنت له أبًا ، أو من تأجرنى بمعنى تثيبنى ، ومنه تعزية الرسول ﷺ : « أجَرَكُم الله ورحمكم » ، وفى القاموس : أجَرَه ، يأجِرُه ، ويأجُرُه : جزاه كآجره ، والأجر : الجزاء على العمل .

(حِجَجٍ) : جمع حِجَّة – بالكسر – وهى السَّنة . (أَشُقَّ عَلَيْكَ) : أوقعك فى المشقة والصعاب . (فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ) أى : لا يُعْتَدَى علىَّ فى طلب الزيادة .

التفسير

٢٣ – (وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) :

ولما بلغ موسى ماء مدين ووصل إلى بئرها وأشرف عليه وجد فوق شفيرها وعلى جوانبها جماعة كثيرة من الناس مختلفى الأصناف يسقون مواشى مختلفة ، منهم من كان يسقى إبلًا ومنهم من كان يسقى غنمًا وهكذا ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم أو مما يلى جهته إذا قدم عليهم امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء خوفًا من السقاة الأقوياء كما قال ابن عباس ، أو : لئلا تختلط بغيرها كما قاله الزجاج ، فلما رآهما موسى – عليه السلام – رق قلبه لهما وعطف عليهما وقال : ما شأنكما وما خبركما ؟ لماذا لا تردان الماء مع هؤلاء ؟ قالتا : عادتنا ألَّا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء بعد ريِّها ؛ لأننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مدافعة الرجال ومزاحمتهم ، ومالنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر ، فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء ، يقصدان إبداء العذر عن توليهما السقى بأنفسهما .

وفى سؤاله – عليه السلام – إياهما دليل على جواز مكالمة الأجنبية مع التصون والعفاف .

قال الزمخشرى : فإن قيل : كيف ساغ لنبى الله أن يرضى لبنتيه بسقى الغنم ؟

فالجواب : أن الأمر فى نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك ، والعادات مُتباينةٌ فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحَضر ، خصوصًا إذا كانت الحال حال ضرورة .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٤ : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو على أقوال :

أحدها : أنه شعيب – عليه السلام – الذى أُرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ، ورواه ابن أبى حاتم ، قال : حدثنا أبىّ ، حدثنا عبد العزيز الأزدى ، حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبًا هو الذى قصّ عليه موسى القصص .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وكان شعيب قبل زمن موسى بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ » ولقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل – عليه السلام – كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ، وكان بين الخليل وموسى مدة طويلة ، وما قيل : إن شعيبًا عاش مدة طويلة إنما هو – والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ومما يقوى كونه ليس بشعيب النبى أنه لو كان إياه لكان جديرًا أن ينص على اسمه فى القرآن ههنا ، وماجاء من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده ، ثم الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه شيرون – والله أعلم –

ويقول الآلوسى – بعد أن ساق مثل ما تقدم – : والأخبار التى وقفنا عليها فى هذا المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيها .

٢٤ – (فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) :

اهتز وجدان موسى ، وتحركت عوامل الرحمة فى قلبه ، فتطوع لمساعدتهما وسقى غنمهما لأجلهما ، ثم ركن إلى مكان ظليل ليستريح من الجهد الذى بذله ، وهو يقول فى تضرع وتذلل لربه : يارب إنى فقيرٌ إلى ما تسوقه إلىّ من خير ، محتاجٌ إلى شىءٍ تنزله من خزائن كرمك ، ويبدو من عبارته شدة الحاجة إلى نجدة من رحمة الله بعد ما قاسى من سفر طويل وحرمان شديد ، فعرَّض بالدعاء ولم يصرح بالسؤال .

قال الزمخشرى : وإنما فعل ذلك رغبة فى المعروف ، وإغاثة للملهوف ، لأنه بعد أن وصل إلى ماء مدين وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم فما أبطأت همته فى انتهاز تلك الفرصة احتسابًا على ما كان به من النصب والجوع، فرحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقى فى تلك الزحمة بقوة قلبه وشدة ساعده وما آتاه الله من الفضل فى متانة الخلقة، وفيه انتهاز فرصة الاحتساب وترغيب فى الخير ، وبعث على الاقتداء فى ذلك بالصالحين ، والأخذ بسيرهم ومذاهبهم .

ولما رجعت الفتاتان بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما مسرعتين ، فسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى – عليه السلام – فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها .

٢٥ – (فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فجاءت إحدى الفتاتين مُوفدة من قِبَل أبيها تسير نحو موسى سير الحرائر ، فى حياء وخَفَر ، قالت : إن أبى يدعوك ليثيبك ويكافئك على سقيك غنمنا ، فلما ذهب موسى إلى والد الفتاتين وحدثه حديثه ، وقصَّ عليه قصصه ، وما جرى له ، وسبب خروجه من مصر ، وتتبعَ القوم له واقتفاءهم أثره ، وشدة حرصهم على ملاقاته والفتك به ، قال له : طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا ؛ فقد خرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم فى بلادنا وسلمت من القوم المعتدين : يُرِيدُ فِرعونَ وقومَه .

وفى قول الفتاة السابق ما فيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ، وقد لبى موسى دعوة شعيب لا على سبيل أخذ الأجر على معروف بذله لبنتيه ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف قُدِّم له ، وقد قص على شعيب قصصه وعرَّفه أنه من بيت النبوة ، ومثله حقيق بأن يُضَيَّف ويُكَرَّم ، على أنه ليس بمنكر أن يقبل الأجر على خير فعله لاضطرار الفقر والفاقة .

رُوِى أنها لما قالت له : « لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » كره ذلك ، ولما قُدِّم إليه الطعام امتنع مع شدة حاجته إليه وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطِلَاع[1] الأرض ذهبًا ولا نأخذ على المعروف ثمنًا ؛ فقال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا[2] .

هذا وإن كل من فعل معروفًا فأُهدى بشيء لم يحرم أخذه .

٢٦ - (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَـٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) :

قالت إحدى ابنتى هذا الرجل (ولعلها هى التى استدعت موسى إلى أبيها والتى زوّجها من موسى عليه السلام): يا أبت اتخذه أجيرًا لرعى الغنم والقيام على شئونها وحفظها ، ورعايتها ، إنه خير من تستأجره للقيام بهذه المهمة ، وأداء هذا العمل لقوته وأمانته ، وكلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان - أعنى القوة والأمانة - فى القائم بالعمل فقد فرغ بال صاحبه وتم مراده ، وقد ساقته مساق المثل حيث قالت : (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) بدلًا من أن تقول استأجره لقوته وأمانته .

وعن ابن عباس : أن شعيبًا أحفظته الغيرة : أغضبته ، فقال : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له حمله حجر البئر ونزعه الدلو ، وأنه صوَّب رأسه[3] حين بلغته رسالته ، وأمرها بالمشى خلفه . إ هـ : بتصرف .

روى ابن كثير والزمخشرى عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب حين قالت : « إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ » ، وصاحب يوسف فى قوله : « أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا » ، وأبو بكر فى عمر ، أى : فى اختياره عمر وترشيحه ليكون خليفة بعده .

وقدمت وصفه بالقوة مع أن أمانة الأجير لحفظ المال أهم فى نظر المستأجر ، لِتَقَدُّم علمها بقوته على علمها بأمانته ، أو ليكون وصفه بالأمانة بعده من باب الترقى من المهم إلى الأهم ،

(١) طِلَاع الشىء - ككتاب - : ملؤه . إ هـ : قاموس .
(٢) الكشاف بتصرف .
(٣) صوَّب رأسه : خفضها . إ هـ : قاموس ص ٩٤ ج ١

واستُدِلّ بقولها : (اسْتَأْجِرْهُ) على مشروعية الإجارة عندهم ، وكذلك كانت فى كل ملة وهى من ضروريات الحياة وفيها قضاءٌ لمصالح الناس .

٢٧ ـ (قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَىٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

استئناف بيانى وقع جوابًا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها ؟

أى : قال شعيب ـ عليه السلام ـ لموسى : إنى أريد أن أزوجك واحدة من ابنتَىّ هاتين على أن يكون مهرها أن تعمل عندى أجيرًا لرعى الغنم ثمانى سنوات فإن أتممت عشرًا فى الخدمة والعمل فالإتمام من عندك لا أُلزمك به ، ولكن إذا فعلته فهو منك تفضل وتبرُّع ، وما أُريد أن أُصَعِّبَ الأمر عليك وأُوقعكَ فى مشقة بإلزام أطول الأجلين ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين المحسنين للمعاملة الموفين بالعهد .

وعلى النحو المتقدم وعد شعيب موسى المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ولا يفعل نحوه ما يفعله المُعَاسِرُون مع من يعمل لهم من المناقشة فى مراعاة الأوقات ، والمضايقة فى استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالًا خارجة عن حد الشرط ، وهكذا كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ آخذين بالأسمح فى معاملات الناس ، وفى الآية الكريمة السابقة جواز عَرْضِ الولى ابنته على الرجل الصالح ، وهذه سنة حسنة ، عرض صالح بنى مدين على صالح بنى إسرائيل بنته ، وعرض عمر بن الخطاب بنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، فلا بأس بعرض الرجل وليّته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداءً بالسلف الصالح .

كما تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار ، وبه قال الشافعى ومالك واحتجا بهذه الآية ، وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها إلّا برضاها ، أما الصغيرة البكر فيزوجها وليها بغير رضاها بلا خلاف ، واستدل الشافعى بقوله : « إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح ، وخالفه غيره .

قال القرطبى فى المسألة العاشرة : قوله تعالى : (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) يدل على أنه عرض لا عقد لأنه لو كان عقدًا لَعَيَّنَ المعقود عليها له ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يجوز الإبهام فى النكاح ، فلابد من تعيين المعقود عليها .

ثم قال فى المسألة الحادية عشرة : أما تعيين الفتاة فقد حدث عند العقد .

ثم قال : وأما ذكرُ أول المدة فى الإجارة فليس فى الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه ، فإمَّا عيَّنَاهُ وإلَّا فهو من أول العقد .

وقد دلت الآية الكريمة على أنه قد أصدقها منفعة هى الإجارة ، وهو أمر قد قرره شرعنا ، وجرى فى حديث الرجل الذى لم يكن عنده إلَّا شىءٌ من القرآن ، وقد قال الرسول ﷺ للرجل سائلًا : « ما تحفظ من القرآن ؟ » فقال : سورة البقرة والتى تليها . قال : « فَعَلِّمْها عِشرينَ آيةً وهى امرأَتُك » إ هـ : ملخصًا من القرطبى .

وتسمية المهر أجرًا اصطلاح قرآنى وقد قال : « فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » .

فإن قيل : إن إجارته كانت منفعة لأبيها كما هو ظاهر النص ، فالجواب : أن الغنم إما أن تكون لها فمنفعة إجارته عائدة عليها ، وإن كانت الغنم لأبيها فربما كان ذلك شرع من قبلنا يجعل المهر من حق الأب .

٢٨ - (قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

قال موسى لصهره : ذلك الذى قُلْتَه وعاهدتنى فيه ، وشارطتنى عليه قائم بيننا ، لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ، ولا أنت عما شرطت على نفسك ، أى أجل من الأجلين - أطولُهما الذى هو العَشْرُ أو أقصرهما الذى هو الثمانى - وفيتك بأداء الخدمة فيه فلا يُعْتدى علىَّ بطلب الزيادة عليه .

قال الزمخشرى : أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء ، إمَّا هذا وإمَّا هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فموكولة إلى رأيى

إن شئتُ أتيتُ بها وإلَّا لم أُجبر عليها، وقيل معناه: فلا أكون معتديًا، وهو نفى للعدوان عن نفسه، كقولك: لا إثم علىَّ ولا تبعة علىَّ، والله على ما نقول من الشروط الجارية بيننا وكيل وشاهد وحفيظ، والمراد: توثيق العقد وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عنه أصلًا، وبما سبق فى الآيتين استدل العلماء على أن اليسار لا يعتبر فى الكفاءة؛ فإن موسى لم يكن حينئذ موسرًا، وأن فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اكتفاء بشهادة الله – عز وجل – إذ لم يُشْهِد أحدًا من الخلق، فيدل ذلك على عدم اشتراط الإشهاد فى النكاح عندهم، وقد اختُلف فى ذلك على قولين: أحدهما: أنه لا ينعقد إلَّا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة، والشافعى، الثانى: أنه ينعقد دون شهود، وبه قال مالك؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّف[1].

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥: وقد دل الدليل على أن موسى – عليه السلام – إنما فعل أكملَ الأجلين وأتمَّهما.

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: سألنى يهودى من أهل الحيرة: أى الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدرى حتى أُقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس – رضى الله عنه – فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل، والله – تعالى – أعلم[1].

(١) انظر القرطبى: المسألة الثالثة والعشرين.

* (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ) : أتم المدة المضروبة بينه وبين شعيب .

(ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ) : أبصر من الجهة التى تلى الطور ، وأصل الإيناس : إبصار ما يؤنس

(بِخَبَرٍ) : بنبإ يعلم منه الطريق ، وكانوا قد أخطأوا الطريق وضلوا عنه .

(جَذْوَةٍ) ـ مثلثة الجيم ـ : عود غليظ مشتعل . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون .

التفسير

٢٩ ـ (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ . . .) الآية .

هذه الآية تتضمن كلاماً قبلها يقتضيه سياق القصة ، وتتابع أحداثها ، فإن قوله ـ تعالى ـ على لسان شعيب : « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ . . . » الآية[1] لم يزد على أنه مجرد عرض ، وإبداء رغبة لم يبرم فيه عقد ، ولم تتكامل معه أركان الزواج ، ومن عادة القرآن أن يستغنى عن ذكر ما يستدعيه المقام ويفهم من التتابع ؛ فإن الإيجاز من مقاصد البلاغة ، وتمام النسج على هذا أن يقال : فلما توافقا ، وتم عقد النكاح أخذ فى إمضاء ما التزمه (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) أى : فلما أتم موسى المدة التى تركها شعيب لخيار موسى ـ عليه السلام ـ والمراد به : الأجل الآخر كما أخرجه ابن مزدويه عن مقسم ، عن الحسن ابن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ وأخرج البخارى ، وجماعة عن ابن عباس : أنه سئل : أى الأجلين قضى موسى ـ عليه السلام ـ ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن رسول الله إذا قال فعل .

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة القصص .

وقوله تعالى : (وَسَارَ بِأَهْلِهِ) أى : مضى إلى مصر بأهله ، وما كان معه من الزاد بإذن من شعيب – عليه السلام – قالوا : كان موسى – عليه السلام – قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه ، قال ابن عطاء : لما أتم موسى أجل المحنة ، ودنت أيام الزلفة ، وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه فى لطائف صنع ربه .

ومعنى (ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) : أبصر من الجهة التى تلى الطور ، لا من بعضه كما هو المتبادر ، وأصل الإيناس – على ما قيل – : الإحساس من الأُنس فيكون أعم من الإبصار .

وقال الزمخشرى : هو الإبصار البين الذى لا شبهة فيه ، واستظهر بعضهم أن المبصر كان نورًا حقيقة إلَّا أنه عبر عنه بالنار اعتبارًا لاعتقاد موسى ، ولأن النار هى طلبته .

وقوله تعالى : (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) معناه : قال موسى لأهله حين آنس النار : أقيموا مكانكم ، واثبتُوا ، وفى البحر : أنه خرج بأهله وماله فى فصل الشتاء ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل لا يدرى أليلًا تضع أم نهارًا ، فسار فى البرية لا يعرف طريقها ، فألجأه السير إلى جانب الطور الغربى فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، فأضل الطريق يومًا حتى أدركه الليل ، فأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنده فأصلد[1] ، فنظر فإذا نار تلوح من بعد ، فقال لأهله : امكثوا وأقيموا مكانكم إنى أبصرت نارًا سأقصدها (لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) أى : رجاء أن أجد عندها من يرشدنى إلى الطريق فآتيكم بخبر عنه ، أو آتيكم بعود غليظ ملتهب بالنار تلتمسون به الدفء من شدة ما تعانون من البرد .

(١) أى : لم يخرج نارا .

(فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) : الجانب الأيمن بالنسبة لموسى ، وقيل : الأيمن من اليُمْن .

(الْبُقْعَةِ) ـ بضم الباء ـ : القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها ، وتفتح باؤها أيضًا كما فى القاموس . (جَآنٌّ) : حية كحلاء العين بيضاء وتكثر فى الدور ولا تؤذى .

(مُدْبِرًا) : منهزمًا خلفه من الخوف . (يُعَقِّبْ) : يرجع . (اسْلُكْ) : أدخل .

(جَيْبِكَ) الجيب : فتحة القميص من حيث يدخل الرأس . (جَنَاحَكَ) الجناح : العضد والذراع ؛ لأن الذراع للإنسان كالجناح للطائر . (سُوٓءٍ) : عيب ومرض .

(الرَّهَبِ) ـ بفتح الراء والهاء ـ : الخوف ، وفيه ـ إسكان الهاء مع فتح الراء وضمها ـ وبه قرئ .

(بُرْهَانَانِ) : حجتان واضحتان ، تثنية برهان ، وهو الحجة النيرة القاطعة يقال : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان .

التفسير

٣٠ ـ (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ . . .) الآية .

أى : فلما أتى النار التى آنسها موسى ـ عليه السلام ـ جاءه النداء من الجانب الأيمن

بالنسبة إلى موسى فى مسيره ، فالمقصود بالجانب الأيمن : الجهة اليمنى ، وجوزوا أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليُمن والبركة ، وعلى هذا يجوز أن يكون وصفًا للشاطئ أو الوادى ، وقوله : (فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) معناه : نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى هذه القطعة التى باركها الله بما خصها به من آياته وأنواره المشتملة على الشجرة النابتة فيها .

وقوله : (أَن يَامُوسَى) تفسير للنداء ، أو بيان لشأنه وحقيقته حسمًا لكل شك وقطعًا لكل تأويل ، قال جعفر : أبصر نارًا دلته على الأنوار ؛ لأنه رأى النور فى هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به أجواء الأنس فخوطب بألطف خطاب ، واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلَّمًا شريفًا أُعطى ما سأل ، وأَمِنَ مما خاف . ومعنى : (إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) : إنى أنا الله ربك الذى يخاطبك ويكلمك ، ورب العالمين الفعال لما يشاء ، لا إله سواه ، ولارب غيره ـ تنزه وتعالى ـ عن المماثلة فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله فاسمع منى ، ولا تك فى شك مما يلقى إليك ، وقد سمع موسى ـ عليه السلام ـ على ما تدل عليه الآثار كلامًا لفظيًا خلقه الله فى الشجرة ـ وقيل : خلقه فى الهواء كذلك ، وسمعه موسى من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات ، وذهب الشيخ الأشعرى والإمام الغزالى إلى أن موسى ـ عليه السلام ـ سمع كلامه النفسى القديم بلا صوت ولا حرف ، كما ترى ذاته ـ عز وجل ـ يوم القيامة بلا كيف ولا كم .

وقال الحسن : إنه ـ سبحانه ـ نادى موسى ـ عليه السلام ـ نداء الوحى لا نداء الكلام ، ولم يرتض ذلك العلماء لما فيه من مخالفة الظاهر ، وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء .

ولفظ : (أَنَا) وإن كان كل واحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه .

هذا : وجاء فى سورة طه فى التعبير عن هذه القصة (نُودِىَ يَامُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ) ، وفى سورة النمل : (نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ) وما هنا غير ذلك ، بل ما فى كلٍّ غير ما فى الآخر ، فاستشكل ذلك ، وأجيب بأن المغايرة إنما هى فى اللفظ ، وأما فى المعنى المراد فلا مغايرة والواقع أن ما فى القرآن ترجمة عربية لما سمعه موسى ، فتؤدى بأى عبارة تُفْهِمُ أصل المعنى ، وذهب الإمام إلى أنه ـ تعالى ـ حكى فى كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء لما أن المطابقة بين ما فى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف مَّا .

ومثل هذا يقال فيما تكرر ذكره من القصص فى القرآن الكريم مع اختلاف التعبير فيه ؛ لأن كل سورة تعنى عند ذكر القصة بالجانب الذى تسوقها من أجله ، والتعبير الذى يناسبه .

٣١ ـ (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . .) الآية .

هذه الآية معطوفة على قوله : (أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا اللهُ) فهى من جملة ما نودى به ؛ فقد ناداه أولا بما يؤكد ألوهية الله وربوبيته ـ سبحانه ـ لموسى وللعالمين جميعًا ليستيقظ انتباهه وتنقشع غفلته ، وناداه ثانيًا بما يؤدى الغرض ويحقق المقصود من اصطفائه للرسالة بقوله : وألق العصا التى تحملها فى يديك على الأرض تنقلب حية فى سرعة حركتها ، ثعبانًا عظيمًا فى ضخامة جثتها وضخامة فمها ، آية لك .

وعن الحسن : ما كانت إلا عصا من الشجرة التى اعترضها اعتراضًا ، وعن الكلبى : كانت عصا من شجرة العوسج التى نودى منها موسى .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ) يفصح عن كلام محذوف تقديره : فألقى موسى العصا طاعة لأمر ربه فانقلبت حية فى خفتها وسرعة حركتها ، وثعبانًا فى ضخامة جثتها ، وعظم حجمها ، فلما أبصرها تهتز وتتحرك بهذه الخفة تملكه الخوف واستبد به الرعب ففر منهزمًا ، ولم يعقب على شىء ولم يرجع وراءه أو يلتفت خلفه من شدة خوفه ، وعند ذلك نودى من قبل الله تعالى : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) من المخاوف لأنك رسول الله ، وإنه لا يخاف لدى المرسلون .

٣٢ ـ (اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما نودى به موسى ، والمعنى : أدخل يدك فى فتحة ثوبك حيث يخرج الرأس ، فإن فعلت تخرج بيضاء من غير مرض ولا عيب .

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) فى الكشاف : فيه معنيان :

(أحدهما) : أن موسى ـ عليه السلام ـ لما قلب الله ـ تعالى ـ العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشىء ، فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء ، فإذا ألقيت العصا فانقلبت حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ماهو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى ، والمراد

بالجناح : اليد لأن يد الإنسان بمنزلة جناحى الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه .

(الثانى) : يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه لنفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما ومعنى : (مِنَ الرهْب) من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك . انتهى بتصرف يسير .

وقوله تعالى : (فَذَانِكَ بُرْهَٰنَانِ . . .) معناه : فهذان الأمران العجيبان - وهما قلب العصا ، وخروج اليد بيضاء - برهانان واضحان ، وحجتان نيرتان ، مُرْسلان من ربك ، واصلان إلى فرعون وقومه ليرتدعوا عمّا هم فيه ، إنهم كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله ، أحقاء بأن نرسل إليهم هاتين المعجزتين لزجرهم وردهم عن فسقهم وكفرهم ، والبرهان معناه : الحجة النيرة من قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان مأخوذ من : بره، إذا ابيضّ وتسمى الحجة سلطانًا أيضًا من السليط ، وهو الزيت الذى يتلألأ عند الاتقاد .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(رِدْءًا) : معينًا يشتد به أمرى .

(يُصَدِّقُنِى) : بإيضاح الحق بلسانه ، وبسط القول فيه ، ونفى الشبهة عنه .

التفسـير

٣٣ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - تعقيبًا على تكليفه بالرسالة ، وطلبًا لما يعينه عليها ، ويقويه على أدائها كما يفهم من قوله -تعالى- : (فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى) ولم يقله استعفاء

من الرسالة ورفضًا – كما زعم اليهود – قال: يارب إنى قتلت من هؤلاء القوم نفسًا حين استنصرنى الرجل الذى من شيعتى، فإذا تعرضت لهم ورأونى فإنى أخاف أن يقتلونى بقتيلهم، ولا معين لى يمنعنى منهم، أو يدفع عنى شرهم.

٣٤ – (وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ):

أى: وأخى هارون هو أقدر منى على توضيح الحجة ورد الشبهة، وقوة المعارضة – وإنما قال ذلك لأنه – عليه السلام – كانت به عقدة فى لسانه تضعف تعبيره وتعوق بيانه – فأحتاج إلى من يعيننى ويبلغ حجتى، فأرسل معى أخى هارون ردءًا وعونًا يساعدنى على توضيح الدعوة وإبراز الحجة، ويصدقنى، ويخلص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل الكفار ويظهر صدقى بتقرير الحجج وتزييف الشبه: (إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) فلا يسعفنى لسانى على محاجتهم ولا يطاوعنى على مقاومتهم، ومعارضة باطلهم.

(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات:

(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ): سنقويك ونعينك.

(سُلْطَانًا): تسلطًا وغلبة بالحجة والبرهان.

التفسير

٣٥ – (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا . . .) الآية.

استئناف وقع جوابًا من الله لسؤال موسى – عليه السلام – بقوله: (أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا) أى: قال الله – سبحانه – لموسى: سنعينك ونقويك بإجابة مطلوبك، حيث نشد عضدك بإرسال أخيك هٰرون معك.

وشدة عضده كناية عن تقويته لأن الجسد يشتد بشدة العضد - وهو ما بين المرفق إلى الكتف وقوله تعالى : (وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً) معناه : ونجعل لك ولأخيك تسلطًا وغلبة عليهم فلايقوون على تكذيبكم ، وتمتنعون عليهم فلايصلون إليكما باستيلاء أو محاجة.

وقوله تعالى : (بِآيَاتِنَا) يجوز أن يكون متعلقًا بـ (نجعل) ، أو بـ (لا يصلون) ، والمعنى : أنت يا موسى وأخوك هرون ومن اتبعكما - أنتم - الغالبون بآياتنا ، الممتنعون بقوتنا فلاسبيل لفرعون وقومه إلى الوصول إليكما بأذى .

وبهذه العِدَةِ من الله اشتد عضد موسى - عليه السلام - وقوى عزمه ، وتسامت همته إلى مواجهة طغيان فرعون ومَلَئه ، وتحطيم إلَاهيته ، كما تمت نعمة الله على هرون بإرساله ، بفضل طلب موسى لذلك من ربه ، ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هرون - عليهما السلام - فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيًا ورسولاً معه إلى فرعون ومَلَئه .

(فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(بَيِّنَاتٍ) : واضحات الدلالة على رسالة موسى . (مُفْتَرًى) : مختلقًا لم يحدث قبل هذا مثله ، أو سحر تفعله أنت ثم تكذب به على الله . (الْأَوَّلِينَ) : السابقين .

التفسير

٣٦ - (فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ . . .) الآية .

أى : فلما جاء موسى بآيات الله ومعجزاته الواضحات أنكرها فرعون ومَلَؤه ، وكذبوها ، وقالوا : ما هذا الذى جئت به إلَّا سحر مختلق لم يفعل مثله قبله ، أو سحر تفعله أنت من عند نفسك ثم تفتريه على الله وتكذب ، وزادوا فى العناد والكفر والإنكار فقالوا : وما سمعنا بهذه النبوة التى تدعيها فى آبائنا السابقين علينا ، ولاوقع فيهم مثل هذا القول .

(وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(عَاقِبَةُ الدَّارِ) : هى العاقبة والنهاية المحمودة لقوله تعالى : « لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ » و (الدَّارِ) هى : الدنيا .

التفسير

٣٧ - (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ . . .) الآية

تتعلق بهذه الآية مباحث :

أولًا : أن موسى - عليه السلام - يعنى نفسه بقوله : (مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ) .

ثانيًا : أن السياق يقتضى عدم العطف بالواو لأن الموقع موقع سؤال وجواب ، ولكنه جاء عطفًا بالواو على قولهم : ما هذا إلَّا سحر مفترى ليوازن الناظر بين القولين ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر .

ثالثًا : أن الآية جرت على أسلوب التشكيك والتعمية استجهالًا لهم على حد قوله : « وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

والمعنى : قال موسى - عليه السلام- ردًّا على قولهم : «مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» ربى أعلَمُ منكم بحال من أهَّله للدعوة إلى الهدى والفلاح الأعظم حيث جعله نبيًّا وبعثه بالهدى ، ووعده العاقبة المحمودة فى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله وكرمه .

ووجه اختصاص العاقبة بالعاقبة المحمودة دون مطلق العاقبة : أنها هى التى دعا الله إليها عباده ، وحضهم عليها ، وهيأ فيهم العقول التى ترشدهم إليها ، وقال عنها : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : تنزيه لله – تعالى – أن يرسل الكاذبين ، أو يُنبئ الساحرين ، أو يفلح عنده الظالمون فيفوزون بمطلوب ، أو ينجون من محذور .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : الأشراف وذوو الرأى . (أَوْقِدْ) : أشعل النار .

(صَرْحًا) : قصرًا عاليًا وبناءً شامخًا .

التفسير

٣٨ – (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى . . .) الآية .

بعد أن جمع فرعون السحرة وتصدى للمعارضة ، وكذب موسى وسمع إجماع قومه على التكذيب قال فى تيه وشموخ مخاطبًا أشراف قومه : يٰأيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيرى مما يدعيه موسى ويدعو إليه ، نفى علمه بإلٰه غيره دون أن ينفى وجود الإله ، حيث لم يقل : ليس لكم إلٰه غيرى ، يريد بذلك :أنه لو كان لهم إلٰه غيره لعلمه ، وهو بذلك يحاول أن يخلع على نفسه خلق الإنصاف فى الحكم ، ولهذا رتب عليه قوله : « فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » والواقع أنه كاذب ؛ فإن ألوهية الله – تعالى – لعباده لا يمكن أن تخفى على مثله ، وهذا ما يشهد به قوله تعالى حكاية عن موسى – عليه السلام – : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ » .

ومعنى : « فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » : أشعل النار على الطين شديدة قوية ليتحول إلى آجُر ، فيكون أقوى فى البناء ، فإذا استحال الطين آجُرا فابْنِ قصرا عاليًا ، وبناءً شامخًا

لأصعد عليه فأطلع إلى إله موسى الذى يدعيه ، ويدعو له ، وكأنه يوهم قومه أنه لو كان كما يقول موسى لكان جسمًا فى السماء يمكن الصعود إليه ، والاطلاع عليه ، وإنى لأظنه من الكاذبين فيما يذكر من أمر الإله وما يدعى من شأن النبوة ، ولكن أحب أن أحقق الأمر من طرقه المختلفة حتى لا يكون لدىّ ولا لديكم شك فى أنه ليس لكم إله غيرى ، وهذا منه مبالغة فى التمويه ، وإغراق فى التلبيس واللعب بعقولهم : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(بِغَيْرِ الْحَقِّ) : بالباطل ؛ لأن الاستكبار بالحق لله وحده . (لَا يُرْجَعُونَ) : ـ بضم الياء ـ من الرجع المتعدى إلى المفعول بنفسه ، و ـ بفتحها ـ من الرجوع الذى لا يتعدى إلى المفعول بنفسه . (فَنَبَذْنَاهُمْ) : طرحناهم ورميناهم . (الْيَمِّ) : البحر .

(أَئِمَّةً) : قادة ودعاة . (لَعْنَةً) : طردًا وإبعادًا عن الرحمة .

(الْمَقْبُوحِينَ) : المشوهين الموسومين بعلامات منكرة قبيحة .

التفسير

٣٩ ـ (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ . . .) الآية .

المعنى : واستكبر فرعون اللعين وجنوده فى أرض مصر ، واستعلوا وتعاظموا على الإيمان بالله ، والتصديق برسالة موسى استكبارًا باطلًا بغير أهلية ولا استحقاق ، لأن رؤية العظمة

للنفس على الخصوص دون غيرها لا تكون حقًّا إلَّا من الله – عز وجل – قال الزمخشرى : الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده ، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير حق ، وفى الحديث القدسى : « الكبرياءُ ردائى والعَظَمةُ إزارِى فمنْ نازعنى فى واحدٍ مِنْهما ألقيْتُهُ فى النارِ » .

وأكثر المفسرين على أن الأرض هى مصر ، وقيل : مطلق الجرم المقابل للسماء ، وفى التقييد بها زيادة تشنيع عليهم ، وتسفيه لعملهم ، حيث استكبروا فى أسفل الأجرام بغير استحقاق ولا تأهيل ، ومعنى قوله تعالى : (وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) : توهموا أن لا معاد ولا بعث ، وأنهم لا يعودون إلينا ، ولا يرجعون لنا لملاقاة الجزاء ، ومواجهة العذاب .

والتعبير عن اعتقادهم بالظن إمَّا على ظاهره ، وإمَّا تحقير لهم ، وسخرية باعتقادهم ؛ حيث بنوه على الأوهام .

٤٠ – (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى : فباغتنا فرعون وجنوده فأخذناهم فنبذناهم وطرحناهم فى البحر ، ورميناهم فيه رمى البقايا التالفة والمخلفات التافهة ، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ ، واستحقار شديد للمأخوذين وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم فى اليم كما يأخذ الإنسان شيئًا عديم القيمة فيرميه . (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى : فتأمل يا رسول الله وانظر كيف انتهت عاقبة هؤلاء الطغاة وكيف استحال تجبرهم وكفرهم ، وبَيِّنْ هذا لقومك وللناس ليعتبروا ويتدبروا .

٤١ ، ٤٢ – (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) :

المعنى : خلقناهم وصيرناهم فى عهدهم قدوة للضلال يدعون إلى موجبات النار فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ويوم القيامة لا ينصرون من أحد بدفع العذاب أو تخفيف ويلاته عنهم بوجه من الوجوه .

وأتبعناهم فى هذه الدنيا التى فتنتهم وصرفتهم عن اتباع الهدى – أتبعناهم – لعنة وطردًا وإبعادًا عن الرحمة ، أو أتبعناهم لعنًا من اللاعنين الذين يجرى ذكرهم على ألسنتهم ، حيث لا تزال الملائكة تلعنهم والمؤمنون خلفا عن سلف .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) أى : وهم فوق لعنتهم فى الدنيا ، يوم القيامة من المطرودين المبعدين ، أو من المهلكين المشوَّهين ، فيجمع لهم بذلك خزى الدنيا وذل الآخرة ، روى ابن عدى والطبرانى عن ابن مسعود أنه ﷺ قال : « خَلَقَ اللهُ يحيى بن زكريا فى بطنِ أمّه مؤمنًا وخلَق فرعونَ فى بطْنِ أمه كافرًا » .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : التوراة . (الْقُرُونَ الْأُولَى) : هم أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط – عليهم السلام – (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) : أنوارًا لقلوبهم .

التفسير

٤٣ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . .) الآية .

هذه الآية والآيات بعدها تشعر – بتصدرها بالقسم والتوكيد – بأنها بداية حديث عن موسى – عليه السلام – مع أن السورة من أولها تحكى قصته ، والذى يفهم من هذا الأسلوب – والله أعلم – أنه إثارة للانتباه بعد أن طال الكلام عن القصة ، وتجديد للتشويق ، ومدخل إلى التصديق برسالة سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – بما يخبر به من غيبيات فى قصة موسى لم يكن شاهدها ولا علم له بها من قبل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ، وأنزلناه مفصل الأحكام ، من بعد ما أهلكنا القرون السابقة عليه من أقوام نوح وهود وصالح ولوط – عليهم السلام .

والتعرض لبيان كون إيتاء التوراة بعد إهلاك الأمم السابقة للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، وضرورة نزولها لهداية الناس ، وردهم إلى الجادة ، وذلك تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الملحة إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فإن إهلاك

القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع المؤدى إلى اختلال نظام العالم وفساد أحواله، وذلك يستدعى تشريعًا جديدًا يرد الناس إلى جادة الصواب، ويرشدهم إلى السلوك القيم، ولهذا قال: (بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ) أى: أنوارًا لقلوبهم، تبصر بها الحقائق، وتميز بين الحق والباطل، حيث كانت من طول ما تغشاها من الجهل عمياء عن الفهم والإدراك؛ فإن البصيرة نور القلب، كما أن البصر نور العين.

والمراد بالناس أمة موسى - عليه السلام - ومن أنزل إليهم التوراة لترشدهم إلى الاستقامة وحسن السلوك، وما تتضمنه من تأييد بعثة محمد ﷺ وحقية رسالته.

وقوله تعالى: (وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ):

معناه: هدى إلى شريعة الله التى هى الطريق الموصلة إلى الله - عز وجل - ورحمة ينال من عمل بها ثوابه وحسن جزائه ليكونوا على حال يرجى منه التذكر والاعتبار، فمعنى: لعل هنا، التعليل، حكى الواقدى عن البغوى أنه قال: جميع ما فى القرآن من لعل للتعليل إلا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » فإنها للتشبيه، والمشهور أنها للترجى.

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات:

(الْغَرْبِيِّ): الجبل الغربى، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات.

(إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) : إذ عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى .

(الشَّاهِدِينَ) : الحاضرين للوحى من جملة السبعين المختارين للميقات .

(أَنشَأْنَا قُرُونًا) : خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة .

(فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) : تمادى وتباعد عليهم الزمن .

(ثَاوِيًا) : مقيمًا . (الطُّورِ) : الجبل . (لِتُنذِرَ) : تخوف وتحذر .

التفسير

٤٤ - (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

هذه الآية وما بعدها شروع فى التنبيه إلى نبوة محمد ﷺ وفى بيان أن إنزال القرآن واقع فى زمان مساس الحاجة إليه ، واقتضاء الحكمة له البتة . وقد صدر بتحقيق كونه وحيًا صادقًا من الله - عز وجل - ببيان أن الوقوف على ما تناول من أخبار ، وما فصّل من أحوال لا يتسنى إلّا بالمشاهدة أو بالتعلم ممن شاهدها على أسلوب قوله تعالى : «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » .

والمعنى : وما كنت بجانب الجبل الغربى ، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات « إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » وعهدنا إليه ، وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإنزال التوراة ، وما كنت من جملة الشاهدين الحاضرين الوحى ، وهم السبعون المختارون للميقات ، المنوه عنهم بقوله تعالى : «وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا » ما كنت من الشاهدين ذلك حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى ونزول ألواح التوراة عليه فتخبر بذلك .

ويصح أن يكون المعنى : وما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك من شأن موسى ، وأخبرت به فهو نفى لشهادته - عليه الصلاة والسلام - جميع ما جرى لموسى فكان عمومًا بعد خصوص .

٤٥ - (وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) :

هذه الآية استدراك لتأكيد المعنى السابق فى الآية قبلها .

والمعنى : ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا وأممًا كثيرة تمادى وتباعد عليها الزمن ، فتغيرت الشرائع ، وتبدلت الأحكام ، وعميت عليهم الأنباء ، لا سيما ما كان منهم فى آخر هذه الأزمان من الذين أنت فيهم ، فاقتضت حكمته - تعالى - التشريع الجديد وقص الأنباء على ما كانت عليه ، فأوحينا إليك ، وقصصنا عليك ما لم تكن شاهده ولا قريبًا من زمانه ، تصديقًا لنبوتك وتحقيقًا لرسالتك .

(وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) أى : ما كنت مقيمًا فى أهل مدين وقوم شعيب حتى يكون علمك بما تقصه وما تتلوه من آياتنا الناطقة بما كان لموسى - عليه السلام - معهم ، وبما كان لهم معه عن طريق إقامتك فيهم تتسمع منهم ، وتتعلم هذه الأخبار عنهم ، ثم تتلوها عليهم (وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) : ولكن ذلك بإرسالنا لك ووحينا إليك .

٤٦ -(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

المعنى : كما لم تكن بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، ولم تكن ثاويًا فى أهل مدين ، لم تكن كذلك ولم تحضر بجانب الطور وقت ندائنا موسى : إنى أنا الله رب العالمين ، واستنبائنا إياه ، وإرسالنا إياه إلى فرعون . (وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) أى : ولكن أرسلناك بالقرآن الكريم الناطق بما ذكر وغيره رحمة من ربك لقومك ، وهداية لهم بما تدعوهم إليه من نبذ عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده ، وتهذيب سلوكهم ، وتقويم عوجهم حتى تطهر الأرض من فسادهم ، وتنجلى عن بصائرهم غشاوات الجهل ، وأدران الكدر والضلال ، كما أرسلناك لتنذر قومًا عربًا وغير عرب طال عليهم أمد الجهل ، وامتد بهم زمان الضلال ، ما أتاهم من نذير من قبلك ينذرهم ، ويخوفهم عواقب أمورهم .

قال العلامة ابن حجر فى المنح المكية : من المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل - عليه السلام - وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته .

ونزيد على ذلك : أن إسماعيل أرسل إلى العرب العاربة ، أما العرب المستعربة التى نشأت بعد إسماعيل من ذريته ، فلم يرسل إليهم سوى محمد ﷺ ولذا قال الله -تعالى- فى سورة يس : « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » .

وقوله -تعالى- : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

معناه : فعلنا هذه الأمور كلها ليكون لهم منها تذكر وعظة واعتبار فيرجعوا عن كفرهم ، ويقلعوا عن إصرارهم وعنادهم .

(وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(مُصِيبَةٌ) : عقوبة ونقمة . (لَوْلَآ أَرْسَلْتَ) : هلا أرسلت .

التفسير

٤٧ -(وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ . . .) الآية .

الكلام عن الرسالات السماوية وعن إرسال الرسل خليق أن يثير فى نفس السامع تساؤلا عن الدوافع والأسباب المقتضية لذلك ، وجاءت هذه الآية إجابة عن هذا التساؤل ، توضح أن الحكمة السامية فى إرسال الرسل قطع أعذار المشركين والعصاة ، وإلزامهم الحجة حتى لا يكون لهم اعتذار إذا واجهوا مصيرهم ولاقوا جزاءهم ، والآية وإن كانت تشير إلى الحكمة فى إرسال محمد ﷺ إليهم ، لكنها تشير إلى مثلها فى جميع الرسالات .

والمعنى : ولولا أن تصيب المشركين من قريش وغيرهم من الكفار عقوبة ، أو تحل بهم نقمة بسبب ما يقترفون من الكفر ، وما يرتكبون من المعاصى ، فيقولوا معتذرين عن إتيانها : فعلنا ذلك جهلا ، يا ربنا هلّا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا إلى خير ما نفعل ، ويوجهنا إلى السلوك السوى فنتبع آياتك الظاهرة على يديه ، ونسير فى أفعالنا على هديه ، ونكون من المؤمنين بما جاء به فلا نفعل ما فعلناه .

لولا أن هذا يمكن أن يقولوه عند عقوبتهم على جناياتهم التى قدموها ما أرسلناك ، لكن لما كان قولهم ذلك محققًا لا محيد عنه أرسلناك قطعًا لأعذارهم .

(فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(الْحَقُّ) : القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ أو الرسول المصدق بالقرآن .

(تَظَاهَرَا) : تعاونا بتصديق كل منهما الآخر .

التفسير

٤٨ ـ (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) :

أي : فلما جاء هؤلاء القوم من أهل مكة الموجودين عند بعثة سيدنا محمد ﷺ لما جاءهم القرآن الحق وهو المنزل على محمد ﷺ قالوا تعنتًا واقتراحًا : هلا أوتى محمد مثل ما أوتى موسى من التوراة المنزلة جملة ، ومن المعجزات الأخرى كقلب العصا حية وفلق البحر ، وغير ذلك ، قالوا هذا كما قالوا : « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ) رد عليهم وإظهار لتعنتهم ، وبعدهم عما يرشدهم إلى الحق .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١٢

والمعنى : أولم يكفر أمثالهم ، ومن مذهبهم كمذهبهم فى الكفر والعناد بما أوتى موسى ؟

وعن الحسن ــ رحمه الله ــ كان للعرب أصل فى أيام موسى ، فيكون المعنى على هذا : أولم يكفر آباؤهم المعاصرون لموسى ، وقوله : (مِن قَبْلُ) متعلق بـ (يكفروا) أى : أولم يكفروا من قبل هذا القول ؟ أو من قبل هؤلاء الكفار ؟ قالوا : سحران تظاهرا وتعاونا : سحر موسى وسحر هرون .

ونحن نرجح أن الذين كفروا بما أوتى موسى من قبل وقالوا : سحران تظاهرا ، هم أهل مكة ، روى أن أهل مكة بعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأن محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك ، وقالوا : إنا بكل من الكتابين ــ القرآن والتوراة ــ كافرون ، قالوا ذلك تأكيدًا لكفرهم لغاية عتوهم وتماديهم فى العناد والطغيان ، وقرئ : (سَاحِرَانَ تَظَاهَرَا) يعنون موسى ومحمدًا ﷺ .

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(أَهْدَىٰ) : أقوى فى الهداية .

(مِنْهُمَا) : من القرآن والتوراة .

التفسير

٤٩ - (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى : قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين : إذا كان القرآن والتوراة سحرين متظاهرين فأتوا بكتاب من عند الله أقوى منهما فى الهداية ، فإن تأتوا به أتبعه وأصدقه ، وأمضى على هديه ، وهذا الشرط مما يأتى به من يشير إلى وضوح حجته وسنوح محجته ، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيّن الاستحالة ، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام .

وقوله تعالى :(إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) معناه : إن كنتم صادقين فى أنهما سحران مختلقان تظاهرا ، وإيراد الجملة بأسلوب التشكيك مع استحالة صدقهم مزيد تهكم بهم .

٥٠ - (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ . . .) الآية .

أى : فإن لم يستطيعوا أن يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة - ولن يستطيعوا ذلك ولن يقابلوه - فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم الزائغة ، ويصرون على موقفهم عنادًا وكفرًا من غير أن يكون لهم مُتَمَسَّكٌ مَّا أَصْلًا ، إذ لو كان لهم لأتوا به .

وإنما عبر عن عجزهم عن الإتيان بعدم الاستجابة إيذانًا منه ﷺ بأنه على كمال أمْنٍ من أمره - كأن أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاءٌ لهم إلى أمر يريد وقوعه .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) :

أى : لا أحد أضلُّ ممن اتبع هواه ، واستبد برأيه بغير هدى من الله ، فهو أضل من كل ضال .

وتقييد اتباع الهوى بغير الهدى من الله - تعالى - لزيادة التقريع ، والإشباع فى التشنيع والضلال .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) : الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٥

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٤٢ ٢س ٨٥/٨٦-٤٠٠٠ ٢٥

